موسوعة الحضارة العربية الاسلامية


12



الثورة

د. محمد عمارة

دار المعارف للطباعة و النشر



الثورة

الثورة

د. محمد عمارة



دار المعارف للطباعة و النشر
سوسة - تونس

الرقم المسند من طرف الناشر 94/537
تدمك : 6 ـ 348 ـ 16 ـ 9973 ـ ISBN

الثورة
التعريف والمصطلح

إن مرادنا بالثورة هي أنها: العلم، الذي يوضع في الممارسة والتطبيق، من أجل تغيير المجتمع تغييراً جذرياً وشاملاً، والانتقال به من مرحلة تطورية معينة الى أخرى أكثر تقدماً، الأمر الذي يتيح للقوى الاجتماعية المتقدمة في هذا المجتمع أن تأخذ بيدها مقاليد الأمور، فتصنع الحياة الأكثر ملاءمة وتمكيناً لسعادة الانسان ورفاهيته، محققة بذلك خطوة على درب التقدم الانساني نحو مثله العليا التي ستظل دائماً وأبداً زاخرة بالجديد الذي يغري بالتقدم ويستعصي على النفاد والتحقيق!

ومصطلح « الثورة »، وان كان قد عرف واستعمل في تراثنا العربي الديني منه والسياسي، الا أنه لم ينفرد وحده بالدلالة على تلك المعاني التي أشرنا اليها في التعريف، والتي استقرت لهذا المصطلح في أدبنا السياسي الحديث، فلقد شاركته في الدلالة على هذه المعاني أو بعضها مصطلحات أخرى، كان بعضها أكثر منه شيوعاً في الاستعمال على امتداد تاريخنا العربي الاسلامي، حتى لقد يحسب البعض أن مصطلح « الثورة » غريب عن تراثنا وطارىء أضافه عصرنا الحديث. .

فالعرب والمسلمون قد عرفوا مصطلح « الثورة » واستخدموه، وكان يعني عندهم ضمن ما يعني: الهياج، والانقلاب، والتغيير، والوثوب، والانتشار، والغضب.. بل لقد دلت بعض مشتقات هذا المصطلح على نمط في البحث والتفكير يتسم بالعمق والغوص وراء المعاني وقلب الظواهر وتجاوزها بحثاً عن المكنونات! وفي (لسان العرب) لابن منظور، نطالع حديث الرسول، عليه الصلاة والسلام: « أثيروا القرآن، فإن فيه خير الأولين والآخرين » وحديث: « من أراد العلم فليثوّر القرآن »!.. وفي صحاح السنة ومسانيدها الشهيرة نجد هذا المصطلح ـ مصطلح « الثورة » ـ يطالعنا في الكثير من الأحاديث.. فالصحابي « اللجلاج » يروي لنا الحديث الذي يقول فيه « بينما نحن في السوق اذ مرت امرأة تحمل صبياً **فثارالناس وثرت معهم**، فانتهيت الى رسول الله، ﷺ، وهو يقول لها: من أبو هذا؟! فسكتت!...[1] ».. وفي الحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، والذي يحكي قصة حديث الأفك الذي شاع ضدها نقرأ وصف الخلاف الذي نشب بين الأوس والخزرج بينما الرسول يخطب على المنبر، فنجد استخدام هذا المصطلح.. تقول عائشة: « .. **فثار** الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ، قائم على المنبر، فلم يزل رسو الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت!..[2] » ... أما الصحابي « مرة البهزي » فانه يروي لنا، في تنبؤ الرسول بالثورة على عثمان بن عفان، حديثاً يستخدم فيه مصطلح « الهياج » في رواية ومصطلح « الثورة » في رواية أخرى.. يقول: « قال رسول الله، ﷺ: **تهيج فتنة كالصياصي**.. » وفي الرواية الأخرى يروى أن الرسول قال: « كيف في **فتنة تثور** في أقطار الأرض كأنها صياصي بقر..[3] » .. فيؤكد ما سنشير اليه من اشتراك أكثر

---

(١) رواه البخاري وأبو داود وأحمد بن حنبل.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل.

(٣) رواه أحمد بن حنبل (وصياصي البقر: قرونها. ومفردها: صيصة وصيصية).

من مصطلح في الدلالة على « عملية الثورة » كطريق للتغيير. . كما تؤكد لنا صحاح السنة ومسانيدها شيوع هذا المصطلح في تراثنا النبوي، الأمر الذي يشهد له وجود هذا المصطلح في كتب الصحاح والمسانيد الشهيرة في أكثر من أربعين حديثاً[١] . . . .

وحول نفس المعاني يستخدم القرآن الكريم مادة هذا المصطلح للدلالة على: الانقلاب، والاثارة والهياج، فبقرة بني اسرائيل كانت ﴿لا ذلول تثير الأرض﴾[٢] أي لا تقلبها بالحرث الذي يغيرها. . ومن الأمم السابقة من ﴿كانوا أشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها﴾[٣] أي قلبوا وجهها، كما يقول: « البيضاوي » في التفسير. . والخيل اذا اقتحمت ميدان القتال ﴿أثرن به نقعاً﴾[٤] أي هيجن التراب فصنعن به سحباً من الغبار. . والله سبحانه هو ﴿الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً﴾[٥]، وهو ﴿الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾[٦] أي تهيجه كي ينتشر فيسقي البلاد الميتة أو يبسطه في السماء (كيف يشاء). .

وغير مصطلح « الثورة » هذا نجد العرب المسلمين قد استخدموا مصطلحات أخرى للدلالة على عدد من « المعاني » و « الأفعال » القريبة من معنى « الثورة » وأحداثها. . فمصطلح « الفتنة » استخدم، قديماً، للدلالة على الاختلاف والصراع حول الآراء والأفكار وقيام الأحزاب والتيارات الفكرية المتصارعة. . ولقد كانوا يصفون المؤرخ اذا كان حجة في أخبار

---

(١) أنظر (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) وضع جمعيات الاستشراق الأممية. طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م.

(٢) البقرة: ٧١

(٣) الروم: ٩.

(٤) العاديات: ٤.

(٥) فاطر: ٩

(٦) الروم: ٤٨.

« الثورات » و « الحروب » فيقولون عنه: انه عالم في « الفتن » و « الدماء »!

كما استخدموا مصطلح « الملحمة » للدلالة على بعض معاني مصطلح « الثورة »، فدل عندهم على: التلاحم في الصراع والقتال، وخاصة اذا كان القتال في ثورة، كما دل على عمليات الاصلاح الجذري العميق، لأنه ـ كالثورة ـ يفضي الى التأليف بين الأمة ويحقق وحدتها وتلاحمها. ولأن الرسول ﷺ قد مارس التغيير بالوسيلتين معاً: القتال، والاصلاح العميق، جعلوا من أوصافه: « نبي الملحمة »!

وغير « الفتنة » و « الملحمة » استخدموا مصطلح « الخروج »، وغلب على الأدب السياسي لكثير من فرق المسلمين ومدارسهم الفكرية، حتى لقد اشتق منه اسم « الخوارج » لثورتهم المستمرة.. كما استخدموا أيضاً، مصطلح « النهضة »، لأن « النهوض » ـ كالثورة ـ يعني الوثوب والانقضاض.. ففي الحديث الذي يرويه الصحابي « ابن أبي أوفى » نقرأ: « كان النبي، ﷺ، يحب أن ينهض الى عدوه عند زوال الشمس[1] »!.. كما نقرأ في حديث الصحابي « أبو بريدة الأسلمي » عن فتح خيبر قوله: « لما نزل الرسول، ﷺ، بحصن أهل خيبر أعطى اللواء عمر بن الخطاب، ونهض معه من نهض من المسلمين فلقوا أهل خيبر، فقال رسول الله، ﷺ: لأعطين اللواء غدا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فلما كان الغد دعا علياً.. .وأعطاه اللواء، ونهض الناس معه فلقي أهل خيبر[2]... »

... أما أنس بن مالك فانه يروي فيقول: « حضرت عند مناهضة حصن تستر عند اضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم تُصلِّ الا بعد ارتفاع النهار[3] ... »... الى غير ذلك من الأحاديث

(١) رواه أحمد بن حنبل.

(٢) رواه ابن حنبل.

(٣) رواه البخاري.

التي تستخدم مصطلح « النهضة » و« المناهضة » بمعنى البروز والوثوب والصراع مع الأعداء لإحداث التغيير والاقتحام للمستقبل وامتلاك الجديد واحراز الفتح المبين! . .

ولقد ظل هذا المصطلح ـ مصطلح « النهضة » بمعنى « الثورة » ـ مستخدماً حتى وقت قريب، فنحن نطالعه في كتابات جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م)، ويطالعنا في أدب ثورة سنة ١٩١٩ م عندما نقرأ خطب سعد زغلول (١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م). .

ارهاصات الواقع الجاهلي بالاسلام الثورة

ولقد كان الاسلام، عندما ظهر في شبه الجزيرة العربية، في جوانبه الفكرية والاجتماعية والسياسية، أول ثورة كبرى، وأعظم ثورة في التراث الحضاري للعرب المسلمين.. كما كانت لجوانبه الثورية هذه صلات وثيقة بالواقع الذي ظهر فيه، اذ استهدفت هذه الجوانب تغييره والانتقال به الى طور متقدم وجديد.. ويشهد لهذه الصلات ما سبق ظهور الاسلام، كثورة، من ارهاصات تمثلت في محاولات لتغيير هذا الواقع الجاهلي أو تطويره، اتخذت أحياناً شكل الرفض والاستنكار والانكار، وحيناً آخر لجأت الى العنف الثوري، ممثلاً في الانتفاضات والتمردات..

فحركة « الصعلكة » و « الفتوة »، التي عرفها واقع شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام، كانت واحدة من حركات الرفض والتمرد والانتفاض ضد مظالم ذلك الواقع الجاهلي.. فهؤلاء الشعراء الذين عرفوا بشعراء الصعاليك، ومن تبعهم من ذوي الأفق المستنير، ومن المقاتلين والفرسان.. قد انخرطوا في تيار للمقاومة الرافضة، وتسلحوا « بالعنف الثوري » الذي استخدموه في الاغارة على الأثرياء ينتزعون ثراءهم كي يعيدوا توزيعه على الفقراء!.. وهم لذلك هجروا الحواضر والقرى والمدن الى البادية، يشنون

منها غاراتهم التي أشبهت « حرب العصابات »، ويمارسون تقاليدهم المعيشية المتميزة، التي سجلتها أشعارهم المتناثرة بقاياها في مصادر التراث . .

وَخالد بن سنان العبسي - (الذي ظهر بأرض عبس، في نجد) - هو الآخر، علامة على الرفض للواقع الجاهلي، وعلى محاولات التغيير التي سبقت ظهور الاسلام . . فلقد تقدم الى قومه كنبي، يدعوهم الى نمط للحياة غير الذي ألفوه . . لكن قومه خذلوه، ولم تتح له الظروف « دولة » تحفظ « دعوته »، فلفها ظلام الجاهلية مع ما لف من دعوات الرفض ومحاولات التغيير . . ولقد شهد الرسول، عليه الصلاة والسلام، لخالد العبسي ولدعوته . . فعندما جاء وفد قبيلته الى المدينة مبايعاً ومسلماً، كانت ضمن هذا الوفد امرأة عجوز هي بنت خالد العبسي، فلما علم بذلك الرسول، نهض لاستقبالها، وفرش لها عباءته كي تجلس عليها، وقال لها كلمته ذات الدلالة: « مرحباً ببنت نبي ضيعه قومه؟! » . .

وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزي (١٧ ق. هـ ٦٠٦ م) - وهو قرشي، من عدي - كان هو الآخر نموذجاً لحركة الرفض لواقع الجاهلية قبل الاسلام . . فلقد رفض الوثنية وتعدد الآلهة . . وحرم على نفسه الخمر، ودعا الى تحريمها . . واتخذ من غار حراء مكاناً للتحنث والتأمل والتعبد شهراً كل عام، هو شهر رمضان! . . وساح في شبه الجزيرة، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، يلقى الأحبار والرهبان، ويبحث عن الحقيقة، ويجتهد لنسج نمط فكري جديد يتغير به واقع ذلك المجتمع القديم . . وبعد أن مات، وهو في طريقه الى الشام، باحثاً عن الحقيقة، شهدت مكة ظهور الاسلام، بعد موته بخمس سنوات . . وكان تقويم الرسول، ﷺ، لدعوة زيد تقويماً وضعها على طريق المحاولات الكبرى التي سبقت الاسلام داعية الى رفض الواقع الجاهلي ومحاولة تغييره . . فلقد قال الرسول عن زيد: « انه يبعث يوم القيامة أمة وحده؟! » . .

والحنفاء.. ذلك التيار الفكري الديني.. انتشر أصحابه وأتباعه في مواطن كثيرة من أرض شبه الجزيرة.. يرفضون الوثنية، وينكرون مظالم الجاهلية، ويتطلعون الى مجتمع جديد وفكر جديد.. وفي سبيل ذلك أخذوا ينقبون عن بقايا عقيدة التوحيد، كما عرفتها قرونهم الأولى على يد ابراهيم الخليل، ويحاولون بناء نمط فكري ديني من هذه البقايا.. ولقد كان أبو ذر الغفاري (٣٢ هـ ٦٥٢ - ٦٥٣ م) واحداً من هؤلاء الحنفاء، اهتدى بتأمله، وبفكرهم الى التوحيد، فوحد الله وصلى له وحده، دون واسطة، قبل ظهور الاسلام سنوات ثلاث!(١)..

وحلف الفضول.. ذلك التعاهد الاجتماعي والسياسي الذي اجتمعت عليه عدة بطون من قريش - (بنو هاشم، وزهرة، وبنو أسد بن عبد العزى.. وبنو تيم) - وأقسموا فيه وتعاهدوا على: نصرة المظلوم، أياً كان.. وردع الظالم، مهما كان.. ورد المظالم الى أصحابها.. هذا الحلف كان هو الآخر شكلاً تنظيمياً ومنظماً اجتمعت فيه جهود رافضة لما امتلأ به ذلك الواقع الجاهلي من مظالم وآثام، وحاولت به تلك الجهود أن تحل بعض العدل محل الجور الذي كان يئن منه انسان ذلك المجتمع في ذلك التاريخ.. ولقد كان هذا الحلف من ارهاصات التغيير التي اقتربت، زمناً، من ظهور الاسلام، فبين عقده وبين نبوة محمد، ﷺ، عشرون عاماً.. ولقد كان الرسول من بين مؤسسيه، شهد ابرام ميثاقه وعمره عشرون عاماً..

فلقد كانت، اذن، للعرب جهود استهدفت تغيير الواقع، وبعض هذه الجهود كان سلمياً، بينما استعان بعضها الآخر بالسيف - العنف - لانجاز ما أراد من تغيير.. فكانت هذه الجهود جميعاً علامات على طريق الانسان العربي نحو ثورته الكبرى، وانجازه الثوري الأعظم الذي تمثل في ثورة الاسلام..

---

(١) أنظر كتابنا (مسلمون ثوار) ص ١٧ طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م.

ثورة الاسلام

والحـديث عن الاسلام كثـورة، أو عن الجوانب التي مثلت الثـورة في ذلـك البناء الفكـري والمادي الـذي ينـدرج تحت عنـوان: (الاسـلام). . الحـديث عن هذه القضيـة يتطلب ابـراز موقف الاسـلام من الثـورة عـلى جبهتين:

أ ـ **الجبهة الفكرية**: كما تمثلت في كتابه الأول: القرآن الكريم. . وفي: السنة النبوية الشريفة، التي كانت ولا تزال بمثابـة « المذكـرة التفسيريـة »، للقرآن الكريم. .

ب ـ **والجبهة الواقعية**: كما تمثلت في الانجازات الثوريـة التي غير بهـا الاسلام، عندما ظهر، واقع المجتمع الجاهلي، وعبر، عن طريقها، بانسان ذلك الواقع من مرحلة تطورية متخلفة ومعوقة الى أخرى حافلة بقدر عظيم من الاستنارة والتقدم والعدل والحريـة، الأمر الـذي خفف من قيود ذلـك الانسان، وسلحه بأسلحة أفعل في صراعه من أجل التقدم، وانتقل به الى طور حضاري جديد. .

على هاتين الجبهتين ـ وهما متصلتان، بل متحدتان ـ نستطيع أن نرصد موقف الاسلام، كحضارة، من الثورة، ونتعرف على الحقيقة القائلة: انـه كان أعظم ثورات العرب المسلمين في ذلك التاريخ. .

القرآن والسنة.. والثورة:

لم يقتصر موقف القرآن الكريم من قضية الثورة على استخدام المادة اللغوية لمصطلحها في الدلالة على معانيها بمجالات بعيدة عن اطارها، الذي هو تغيير المجتمع والانتقال به الى طور جديد، بل لقد شرع القرآن الثورة **كسبيل انساني لتغيير الواقع والتطور بالمجتمعات**، ولنا على ذلك أدلة قوية وعديدة، نكتفي بايراد بعضها نزولاً على حكم الحيز والمقام:

١ ـ فجميع التيارات الفكرية الاسلامية التي انحازت للثورة، نظرياً أو عملياً أو اليهما معاً، وقررت مشروعيتها، قد استندت الى أن القرآن قد أوجب على الأمة، متضامنة متكافلة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا اقتضى النهوض بهذا التكليف استخدام « الفعل » بعد « القول »، والاستعانة « بالقوة » ـ التي اصطلحوا على تسميتها: قضية « السيف » ـ كان ذلك مشروعاً، لدى البعض، وواجباً لدى البعض الآخر..

وهم قد استندوا في ذلك الى قول الله سبحانه: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[١] وقوله﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[٢].

وقالوا: انه اذا كان الأمر بالمعروف يقف عند حدود: الهدى والبيان بالتي هي أحسن، فإن النهي عن المنكر يتجاوز الهدى والبيان الى الفعل.. واستندوا في ذلك الى عديد من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، من مثل قوله: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٣].. «فالفعل» هنا يتقدم

(١) آل عمران: ١٠٤.
(٢) آل عمران: ١١٠.
(٣) رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن حنبل.

غيره من وسائل التغيير.. ومن مثل قوله، محذراً الأمة من النكوص عن هذا الطريق الصعب: « لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه[1] على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم[2] »! وقوله: « اذا رأيتم الظالم فلم تأخذوا على يديه يوشك الله أن يعمكم بعذاب من عنده»[3]... ومن مثل ترغيبه أمته السير في هذا الدرب المحفوف بالمكاره والمليء بالأشواك، بقوله: « أفضل الجهاد كلمة حق أمام سلطان جائر »[4]! وقوله: « سيد الشهداء: حمزة بن عبد المطلب، ثم رجل قام الى أمام جائر فأمره ونهاه فقتله »!

٢ ـ وغير آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأحاديث المفسرة لها، تجد التيارات الفكرية الثورية، في تراثنا الاسلامي، الكثير من آيات القرآن الكريم التي تدعو الانسان الى رفض الظلم و « العمل » على تغييره.. فالثورة تعني الهجرة من حال الاستسلام والسكون الى حال التمرد والحركة، فهي هجران للركود والموات، ووثبة يتجاوز بها الانسان والمجتمع ذلك الوضع الجائر والواقع الظالم ليستبدل به آخر أكثر اشراقاً ووضاءة.. فليست الهجرة فراراً وهروباً، فهي، في الاسلام، فعل ايجابي، بل ووسيلة تأديب! والذين لا يهجرون المجتمع الظالم بتغييره هم ظالمون لأنفسهم، وهو أشد أنواع الظلم، لأن ضحيته ليس ذات الظالم لنفسه وحدها، وليست فرداً أو أفراداً، بل الأمة ومصالحها والقيم التي دعا اليها الله وبشر بها الرسول.. وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي

---

(١) أي لتدخلونه في الحق وتجبرونه عليه.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وابن حنبل.

(٣) رواه الترمذي في سننه.

(٤) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حنبل.

أنفسهم، قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟! فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾[1] .

٣ ـ ذلك أن كونهم « مستضعفين في الأرض » لا يعفيهم من مسؤولية التكليف بواجب التغيير للظلم، لأن منطقهم الاستسلامي هذا يعاكس ارادة الله سبحانه، تلك الارادة التي صاغها القرآن الكريم في آية جمعت من المعاني والطاقات الثورية ما لم تجمعه شعارات وشعارات: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين . . ﴾[2] . . فارادة الله أن تكون القيادة والامامة للمستضعفين في الأرض، وأن تكون لهم وراثة ما في حوزة أوطانهم من ثروات وعلوم وامكانيات . .

ولم ولن يحول بين التيارات الثورية الإسلامية وبين الاستدلال بهذه الآية أنها قد جاءت في معرض الحكاية عن قوم سابقين على ظهور الاسلام . . فعلماء الأصول قد قالوا: ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . . ونحن نقول: ان القرآن لم يذكر قصص الأولين مستهدفاً التاريخ، بل أورد من هذا التاريخ مواطن للعبرة، فهو يعالج قضايا المجتمع الاسلامي، سواء أكان ذلك بالحديث المباشر أو بالصبر والعظات يسوقها لنا من خلال قصص الأولين.

٤ ـ وفي السنة النبوية وجدت التيارات الثورية المسلمة ما يؤيد موقفها من قضية « السيف »، أي استخدام « العنف الثوري » ـ بتعبيرنا الحديث ـ في عملية التغيير . . ـ وهي قضية خلافية، كما سنذكر في ختام هذه الصفحات ـ وجدوا في السنة ـ الى جانب الممارسة التي تمثلت في ملحمة ظهور الاسلام وصراعات المؤمنين به ضد خصومه ـ أحاديث عدة، أكثرها

---

(١) النساء: ٩٧.

(٢) القصص: ٥.

دلالة ذلك الذي رواه الصحابي حذيفة بن اليمان[1]:

« قلت : يا رسول الله، أيكون بعد الخير الذي أعطينا شر، كما كان قبله؟!

قال: نعم!

قلت: فبمن نعتصم؟!

قال: بالسيف »![2].

فإذا عاد الشر ليطغى على واقع المجتمع، فعلى المسلمين أن يعتصموا بالسيف سبيلاً للتغيير!

٥ ـ وغير هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي استرشدت بها التيارات الثورية المسلمة في تقرير مشروعية الثورة، بل وجوبها، يلمح قارىء القرآن الذي يتدبر آياته، ويستخدم المنهج الثوري ـ الذي أوصى به الرسول ـ في الكشف عن مكنون معانيه. . يلمح العديد من الآيات التي تدعم حجج أصحاب هذا الاتجاه. . وأنا أدعو القارىء للوقوف معي أمام مصطلح استخدمه القرآن للدلالة على عملية « التغيير الثوري »، غير تلك المصطلحات التي سبقت اشارتنا اليها، وهو مصطلح « الانتصار »، **فالثورة تعني التغيير الذي يبدل حالاً بحال وسادة بسادة ويستبدل بواقع بالٍ واقعاً جديداً، وهي في بعض جوانبها انتقام للمظلومين من الظالمين، على تفاوت في درجات الانتقام ومواطنه، وكذلك « النصر » و « الانتصار ». . فالنصر يعني: اعانة المظلوم، والانتصار يعني الانتصاف من الظلم وأهله والانتقام**

---

(١) هو حذيفة بن اليمان (توفي سنة ٣٦ هـ) من أكثر الصحابة الموثوق في روايتهم للحديث، روى عنه: أبو عبيدة بن الجراح، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم. . خيره الرسول بين ميزة الهجرة وميزة النصرة ـ أي أن يكون من المهاجرين أو من الأنصار ـ فاختار النصرة، لأنه كان حليفاً للأنصار.

(٢) هذا الحديث رواه أحمد بن حنبل في مسنده، وأبو داود في سننه.

منهم. . والقرآن يذكر الانتصار، بهذا المعنى، كفعل يأتيه « الأنصار » ضد البغي » الذي هو الظلم والفساد والاستطالة ومجاوزة الحدود. . ![1]

فإذا كان الانتصار: ثورة، والثوار: أنصاراً، فهل لنا أن نفترض لذلك صلة جعلت أولئك الذين أسسوا دولة الاسلام جهروا بدعوته وحاربوا في سبيلها، من الأوس والخزرج، يختصهم كتاب هذا الدين وأدب أمته باسم: الأنصار؟!

وهل لنا دليل من قول الشاعر الذي خاطب الرسول عليه الصلاة والسلام فقال:

والله سمى نصرك الأنصارا آثرك الله به ايثارا

نعتقد أننا لا نتجاوز الحدود بهذا الافتراض!

أما الآيات التي استخدمت مصطلح « الانتصار » للدلالة على « الثورة »، بمعنى التغيير والردع والانتقام من البغاة والظلمة والمستبدين، فإنها كثيرة. . **وأهم من كثرتها وأخطر أنها تجعل « الانتصار » أي « الثورة » احدى الصفات الهامة للانسان المؤمن ولجماعة المؤمنين، بمعنى أن على المؤمن، كي تكتمل له الصفات االتي وصفه بها الله سبحانه في كتابه الكريم أن يكون « منتصراً » ضد البغي والظلم والاستبداد، أي أن يكون ثورياً وثائراً. . ! »**.

يقول الله سبحانه في تعداد صفات المؤمنين: **﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم(ومما رزقناهم ينفقون.**

---

(١) (لسان العرب) لابن منظور، مادة: نصر.

والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور﴾(١).

ففي هذه الآيات نطالع من صفات المؤمنين: أنهم المتوكلون على ربهم.. الذين يتجتنبون الكبائر.. ويغفرون أخطاء الضعفاء، لأن ـ كما يقول « البيضاوي » في تفسيره « الحلم عن العاجز محمود، وعن المتغلب مذموم، لأنه اجراء واغراء على البغي!» وأنهم قد استجابوا لربهم.. وأقاموا صلاتهم.. وجعلوا الشورى فلسفة نظام حكمهم.. ثم هم الذين يتصدون « بالانتصار » ـ « الثورة » ـ للبغي والظلم حتى يغيروه، لأنه لا سبيل ولا ملام على الذين « ينتصرون » ـ يثورون ـ بعد ظلمهم، وانما السبيل والملام على البغاة الظالمين.. ﴿والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾.. ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ !

بل لقد استخدم القرآن الكريم مصطلح « الانتصار » في وصف تيار الشعر والشعراء المسلمين الذين تصدوا بشعرهم لنظرائهم المشركين، فهذا التيار الجديد في الشعر العربي كان أصحابه أنصاراً ومنتصرين، أي ثواراً وثائرين.. ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون؟ وأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾(٢).

---

(١) الشورى: ٣٦ ـ ٤٣.
(٢) الشعراء: ٢٢٧.

هكذا، وعلى هـذا النحو تـطالعنا نصـوص المصادر الاسـلامية الأولى والجوهرية: الكتاب والسنة، بما يزكي حجج التيارات الثورية الاسلامية على مشروعية الثورة، بل وجوبها، في الاسلام..

انجازات الاسلام الثورية
في واقع الانسان العربي

في الجانب الديني، وبالذات: الألوهية، والنبوة، وعالم الحساب والجزاء، جاء الاسلام مصدقاً لما بين يديه من الرسالات السابقة، فقط صحح ما طرأ عليها وأصابها من انحراف، أبرزه انحرافها عن نقاء عقيدة التوحيد، ذلك أن دين الله واحد منذ اتصلت بين السماء والأرض أسباب الوحي الى الرسل والأنبياء.. ومن ثم فإن الذي بشر به محمد، ﷺ، لم يكن ديناً محمدياً.. أما في الجانب التشريعي، وعلى جبهات: تحرير الانسان، وأوضاعه الاجتماعية والسياسية، فنحن ازاء شريعة محمدية جديدة، لأنه اذا كان دين الله واحداً فإن شرائعه ـ بمعنى مناهجه وطرقه الموصلة الى تحقيق غايات دينه الواحد ـ متعددة بتعدد الرسل والأنبياء، للتعدد والاختلاف القائم في مجتمعات هؤلاء الرسل والأنبياء، وعصورهم..

ولقد جاء الاسلام ختاماً لرسالات السماء، وايذاناً بانتهاء « الوحي » المتجدد، لأن البشرية قد بلغت من رشدها، وأصبحت، في أمور معاشها، قادرة على الاسترشاد بعقلها، على ضوء الأطر العامة والقضايا الكلية التي أوصى بها الوحي في هذه الأمور.. ومن ثم فقد كان الاسلام، كشريعة

للدنيا، وكفلسفة تفسر لانسانه هذا الكون الذي يعيش فيه، طوراً جديداً غير مسبوق من الرسالات الدينية القديمة، بل وثورة استهدفت أحدث تغيرات جذرية عميقة مع واقع الحياة التي ظهر فيها وعقل الانسان الذي قرعت آذانه آيات كتابه الكريم . .

الانسان والكون:

كانت الطبيعة، في كثير من مظاهرها وظواهرها، لغزاً غير مفهوم للانسان العربي، بل ولغيره، على امتداد تاريخ طويل . . ولقد دفع هذا العجز، الذي لازم الانسان، عن فهم الكثير من هذه الظواهر الطبيعية الى أن خاف الانسان تلك الظواهر، وارتعدت منها فرائصه، ثم حاول استئناسها بالقرابين ثم جعل منها آلهة عبدها من دون الله، أو وسائط يتقرب بها، زلفى، الى الله . . عبد الشمس . . وعبد القمر . . وعبد النجوم . . وعبد الليل والنهار . . وعبد البحر، والنهر، والجبل . . وعبد، أو قدس، القوى أو النافع من الحيوان . . وقدم القرابين والصلوات للرعد والبرق والمطر . . وللجن . . وغير ذلك مما عجز عن تفسيره من مظاهر الطبيعة وظواهرها . .

فماذا أحدث الاسلام من ثورة على هذه الجبهة؟ . . وما هو التغيير العميق والجذري الذي أنجزه في حقل تصوّر الانسان العربي للكون، وعلاقته بالطبيعة وموقفه من قواها وظواهرها؟؟ . .

لقد قرر الاسلام: « تكريم » الانسان على ما عداه من مخلوقات هذا الكون . . كما قرر « تفضيله » على هذه المخلوقات ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[1] . . ولكنه لم يقف عند حدود « التكريم » و

---

(١) الاسراء: ٧٠.

« التفضيل ».. بل قرر أن الانسان هو « سيد » الطبيعة، وأن هذه الظواهر الطبيعية التي طالما رهبها حتى عبدها انما هي « مسخرة » له، بل انها لم تخلق الا لتكون « مسخرة » لهذا الانسان!.. فهنا ثورة، وانقلاب جذري في العلاقة بين الانسان والطبيعة يحدثها ذلك التصور الجديد الذي يقدمه الاسلام عن الكون للانسان العربي والمسلم.. بل لكل انسان.

وفي كثير من سور القرآن الكريم تلح آياته على تقرير هذا المعنى، وتغرس في نفس الانسان وعقله هذا التصور الجديد الذي يحرره من العبودية، عبودية الطبيعة وظواهرها، وينقله الى مكان « السيد » الذي ما خلقت هذه الطبيعة وظواهرها إلّا لخدمته وتحقيق الشروط الضرورية لرقيه وانسانيته..

﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾[1].

﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[2].

﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[3].

﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه، ان الله بالناس لرؤوف

(١) ابراهيم: ٣٢، ٣٣.
(٢) لنحل: ١٢.
(٣) لنحل: ١٤.

رحيم﴾

﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾[2].

﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون. والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً، كذلك تخرجون. والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾[3].

﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[4].

﴿وسخرنا مع داود الجبال والطير وكنا فاعلين﴾[5].

﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد، انه أواب. انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق. والطير محشورة كل له أواب﴾[6].

﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين﴾[7].

﴿فسخرنا له[8] الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾[9].

---

(١) الحج: ٦٥

(٢) لقمان: ٢٠

(٣) الزخرف: ١٠ ـ ١٣.

(٤) الجاثية: ١٢، ١٣.

(٥) الأنبياء: ٧٩.

(٦) ص: ١٧ ـ ١٩.

(٧) الأنبياء: ٨١.

(٨) أي لسليمان.

(٩) ص: ٣٦ ـ ٣٨

﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير، فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر، **كذلك سخرناها لكم** لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم، **كذلك سخرها لكم** لتكبروا الله على ما هداكم، وبشر المحسنين﴾ [١].

وهكذا... لم يكتف الاسلام بتكريم الانسان، وبتحريره من قيود الرهبة من الطبيعة وأسار العبودية لها، بل لقد ارتفع بمستوى تحريره الى الحد الذي قرر فيه أن هذه الطبيعة وقواها وظواهرها انما هي جميعاً مسخرة لهذا الانسان..

الفرد.. والقبيلة:

قبل ثورة الاسلام كان مجتمع شبه الجزيرة العربية لا يقيم وزناً لفردية الفرد بجانب القبيلة التي ينتسب اليها.. فالقبيلة هي الوحدة التي يبدأ منها التنظيم الاجتماعي لبناته، بل والتي ينتهي اليها هذا البناء؟!.. كانت وحدة متحدة، لها، من دون الفرد، الشخصية الاعتبارية، وكل الحقوق، وعليها، دون الفرد أيضاً، تقع الواجبات والتبعات التي تترتب على الفرد من أفرادها.. ولم يكن التضامن القبلي داخل القبيلة تعبيراً عن رقي في سلم التضامن والترابط بين الفرد والباقين من قبيلته بقدر ما كان تعبيراً عن تخلف التنظيم الاجتماعي عن الاعتراف لهذا الفرد بأية ذاتية مستقلة بجانب ذاتية القبيلة وشخصيتها المنفردة بالاعتبار والنفوذ.. فالملكية لها، والشرف لها، وكل الحقوق لها، والعار عليها، والنقيصة لها، وجميع المغارم تلزمها، ولا اعتبار للمسؤولية الفردية على أي فرد من أفرادها.. كانت ذاتية الفرد ضئيلة ومتضائلة وذائبة في الشخصية العامة لقبيلته التي ينتسب اليها..

---

(١) الحج: ٣٦، ٣٧.

ولكن ثورة الاسلام جاءت فأبرزت ذاتية الانسان الفرد على حساب ذاتية القبيلة، أبرزتها، في البداية، في اطار القبيلة، ثم حثت على اذابة ذاتية القبيلة في اطار الأمة القومية ومحيط الدولة العام.. وهي قد فعلت ذلك عندما قررت للانسان الفرد حريته واختياره، بعد أن كانت جبرية العرب في الجاهلية تحد من نطاق ذاتية الفرد ونموه الى حد كبير، وبعد أن رتبت على حريته واختياره مسؤوليته الفردية والتزامه المستقل عمّا قدمت وتقدم يداه.. ولقد بدأت ثورة الاسلام تقرير هذه المسؤولية الفردية وذلك الالتزام الفردي المستقل بميدان الأفعال والتكاليف الدينية وما يتعلق بها ويتصل من الأعمال شبه الاجتماعية، حسنات كانت أم سيئات، ثم اتسع هذا النطاق شيئاً فشيئاً حتى تقلصت، بالتدريج، هيمنة القبيلة لحساب المسؤولية الفردية والالتزام الفردي المستقل للانسان..

فجميع التكاليف، التي هي فروض عين، فردية.. تجب على الفرد ولا يجزيه عنها التزام قبلي أو غير قبلي.. وتبعاً لذلك فإن مسؤوليته عنها وحسابه عليها وجزاءه فردي كذلك.. فعليه، وحده، القصاص اذا قتل، وليده، وحده، القطع اذا سرق، وهو، وحده، المجلود اذا زنى.. الخ.. الخ.. وحتى فاطمة بنت محمد، عليه الصلاة والسلام، يقول أبوها، في معرض تقرير المسؤولية الفردية، والمساواة والصرامة في تقريرها: انها لو سرقت لقطعت يدها[1]؟!.. وحتى بنو هاشم وآل بيت الرسول يقرر الرسول أن المسؤولية الفردية هي حجر الأساس في علاقة كل واحد منهم بالتنظيم الاجتماعي الجديد، فينهاهم عن الاعتماد على علاقات النسب التي تربطهم به: «لا يأتي الناس بأعمالهم وتأتوني بأحسابكم».

فكانت تلك واحدة من انجازات ثورة الاسلام على درب تحرير الانسان العربي..

(١) رواه البخاي ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن حنبل.

الانسان . . والقدر :

وكانت جبرية العرب في الجاهلية، عندما تنسب عمل الفرد الى القدر، خيراً كان هذا العمل أو شراً، تسهم في تحديد نطاق فردية الفرد وتحد من حريته الى حد كبير. . وجاءت ثورة الاسلام فلم تقف عند حدود تحرير الانسان الفرد من سلطة القبيلة الطاغية وتخليصه من الذوبان في محيطها، لأنها، بتقريرها حريته واختياره ومسؤوليته، قد جعلت ذاته، كفرد، اللبنة الأولى والمستقلة في التنظيم الاجتماعي الجديد. .

ولقد زادت هذه الثورة من حجم انجازها التحريري هذا ومن قيمته عندما رفعت من قدر الانسان وأعلت من شأن حريته وارادته وفعله حتى عندما يكون الحال بازاء ارادة الله سبحانه وتعالى وقضائه وقدره. . صحيح أن التوحيد الاسلامي يعني العبودية التامة من الانسان لله، وصحيح أن الاسلام يعني، أول ما يعني، اسلام الوجه اسلاماً كاملاً للخالق سبحانه، وصحيح كذلك أن صفات الله، في الاسلام، تجعله: القاهر، والجبار، والمهيمن، والمتكبر، والفعال لما يريد. . . ولكن هذا التوحيد الاسلامي ذاته قد حرر ذات الانسان من العبودية للآلهة والقوى والطواغيت المادية الكثيرة التي كان تستعبد روحه وتستذل ذاته وتنتقص من حريته قبل التدين بعقيدة التوحيد. . ثم أن « التنزيه والتجريد » الذي قرره الاسلام بالنسبة للذات الالهية جعلنا أمام وضع جديد تقرر فيه: **التحرير الكامل والحقيقي** للانسان من استعباد **القوى المادية** التي كان يرهبها وتتحكم فيه، **والعبودية** لذات الهية يجعلها التصور التنزيهي أقرب الى القانون الأكبر والعقل العام للكون وتدخل بها في اطار **التجريد**. . وفي هذا التحول انجاز كبير على جبهة تحرير الانسان. .

ويؤكد هذا المعنى ويبرزه أن الاسلام عندما قرر الكثير من الحقوق المتعلقة بالدنيا، للذات الالهية، نراه، بسبب من « التوحيد والتنزيه

يعود، في الواقع العملي، الى جعل هذه الحقوق من نصيب الانسان. .

* فالفقه والشريعة يقرران أن « حق الله » هو « حق المجتمع ». . والمجتمع هو مجموع الأفراد الذين يعيشون فيه!. .

* والفقهاء يقررون: أن ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن. . فيضعون مبدأ: إن ارادة الشعب هي ارادة الله في صورة قانون اسلامي عام وقاعدة فقهية مقررة. .

* والرسول، عليه الصلاة والسلام، يقرر في حديثه، الذي يرويه أنس بن مالك: « ان أمتي لا تجتمع على ضلالة »[١]. . وفي الحديث الذي يرويه ابن عمر: « إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة »[٢]. يقرر مبدأ: عصمة الأمة، وهي غاية ما تقرر ويتقرر في الفكر من اعلاء لقدر حرية الانسان. .

* ثم يبلغ الرسول بتحرير الاسلام للانسان القمة عندما يقول: « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره! »[٣].

فباستطاعة الانسان، اذن، أن يصل بسلطته وسلطانه الى الحد الذي لو أقسم فيه على الله لأبره الله!. . لأن هذا الانسان باكتشافه قوانين الكون وسنن الله فيه، وبسيطرته على هذه القوانين وتلك السنن يصبح حاكماً غير محكوم، لأن اكتشافاته هذه وسيطرته تلك هي كنه ما يريده الاسلام ويعنيه من وراء: الاقتراب من الله، والتشبه به، والاتصاف بصفاته. . فالله هو قانون الكون الأعظم، وطاعة الانسان لهذا القانون الأعظم تعني الاتصاف بصفاته والتسلح ببعض قدراته، الى الحد الذي يسخر فيه القوى الطبيعية بالسيطرة على ما يحكمها من قوانين: من أطاعني كنت يده التي يبطش بها،

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه الترمذي، وابن حنبل.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حنبل. .

ورجله التي يمشي بها، وعينه التي يبصر بها، وأذنه التي يسمع بها!.. يا عبدي أطعني تكن ربانياً تقول للشيء كن فيكون؟!..

هكذا بلغ الاسلام الغاية من حرية الانسان وتحريره، حتى بالقياس الى القدر والى الجبروت والسلطان اللذين اختص بهما الحق، تبارك وتعالى، نفسه وذاته..

تحرير المرأة:

ولقد أولى الاسلام تحرير المرأة، من قيودها القديمة والتقليدية، عناية خاصة. ولم يقف عندما تقرر لها مع الرجل، كانسان، لأن قيودها الخاصة دعته الى ابراز ما قرر لها من حقوق وحريات.. فلم تعد ـ خلافاً لما كانت عليه قبل الاسلام ولما عاد فقرر عليها فقهاء عهود الحريم والعصور الوسطى ـ مجرد متاع للرجل وأداة للهو واستمتاعه.. وانما ارتقى الاسلام بنوع العلاقة الانسانية والاجتماعية التي تربطها بالرجل.. فعلاقة المودة والبر بين الأم وولدها يعلو سلطانها على سلطان الدين والاتفاق في المعتقد ﴿ووصينا الانسان بوالديه حسناً، وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾[1] ﴿وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً..﴾[2]. وعلاقة المرأة الزوجة بالرجل الزوج هي: المودة والرحمة، بل انها هي السكن الذي يسكن اليه في هذه الحياة!.. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[3].. وفي الحقوق والواجبات تستوي المرأة والرجل في نظر الاسلام ﴿ولهن مثل الذي عليهن

---

(١) العنكبوت: ٨.

(٢) لقمان: ١٥.

(٣) الروم: ٢١.

بالمعروف﴾أما « الدرجة » التي أعطاها الاسلام للرجل على المرأة بقول قرآنه في آية المساواة هذه: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾[١] فانها تقف عند تقرير ضرورة اعطاء العنصر الأكثر خبرة ووعياً وامكانية وتمكناً حق الفصل في المشكلات التي تأهل أكثر من سواه للقول الفاصل فيها[٢]. .

صحيح أن الاسلام يقرر للأنثى، في حالات معينة، نصف ما للذكر من نصيب في الميراث، ولكن هذا التمييز المالي لا يعكس انتقاصاً من حرية الأنثى وحقوقها، بل لا نغالي اذا قلنا انه، هنا، يزيدها تكريماً وتحريراً. . ! فهو قد قرر لها الشخصية المالية المستقلة، ثم تبنى عرف العصر الذي ظهر فيه، الذي ألزم الرجل وحده بالتبعات المالية اللازمة للأسرة، ذكوراً واناثاً. . فكأن ما زاد في نصيبه من الميراث انما رصد لينفق منه على الأنثى التي ألزمه الشرع بالانفاق عليها، أما نصيبها هي فإنه قد تقرر لها دون الزام عليها بالانفاق منه في الشركة الزوجية. .

ولم ينظر الاسلام، كموقف عام وثابت، الى التمييز بين الناس في الأمور المالية كمعيار للتمييز بينهم في القدر والقيمة ودرجة الحرية. . فالرسول، عليه الصلاة والسلام، وأبو بكر الصديق كانا يلتزمان التسوية بين المسلمين في « العطاء »، باعتباره « معاشاً » لا علاقة له بالأقدار والمراكز والمفاضلات. . ثم جاء عمر بن الخطاب فميز بين الناس في « العطاء » عندما توافرت الأموال وكثرت بعد الفتوحات، ثم عاد علي بن أبي طالب الى نظام التسوية. . . وعلى عهد الرسول كانت « الحاجة » تحكم، في أحيان كثيرة، مقادير الأنصبة في توزيع الغنائم، دون أن يكون للتمييز والتمايز المالي أية علاقة بالأقدار والمراكز الخاصة بالصحابة الذين تفرض لهم السهام

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) أنظر (الاسلام والمرأة في رأي الامام محمد عبده) ص ٦٢، ٦٣ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م.

في هذه الأموال.. ولقد أعطى الرسول المهاجرين الفقراء غنائم هوازن - يوم حنين - ولم يعط الأنصار - الا رجلين فقيرين منهم - بل لقد أعطى « المؤلفة قلوبهم » من هذه الأموال ما لم يعطه لأحد من الذين سبقوا الى الاسلام وصنعوا بتضحياتهم دولته وانتصارات دعوته وعقيدته - فالتمييز المالي للرجل في الميراث، أمر من أمور المعاش، لا ينهض دليلاً على انتقاص ما قرر الاسلام للمرأة من حرية، وما شرع لها من مساواة بالرجل..

وصحيح أن القرآن الكريم يقرر في احدى آياته أن شهادة امرأتين تعدلان شهادة رجل.. ولكن المتأمل والمتدبر بهذه الآية يدرك أنها قد راعت تلك المرحلة التطورية التي كانت تمر بها المرأة يومئذ، وهي مرحلة كانت محرومة فيها من خبرات المعاملات المالية التجارية المعقدة، بسبب حرمانها من الشخصية المالية المستقلة، فجاء القرآن، مراعاة لتخلفها في هذا الميدان، ليقرر أن شهادتها في الدَّيْن - الذي يحتاج اثباته الى دليل كتابي لا تساوي شهادة الرجل.. فليس في الأمر انتقاص من قدرها وحريتها، وانما فيه موقف واقعي يلائم بين الحق وبين الامكانيات، وهي علة وقصد يفتح باب التطور والتنمية للحق بتطور الامكانيات ونموها.. ثم... هل يستوى الرجال في الذاكرة والتذكر وفي الامكانيات والقدرات؟؟.. انهم لا يستوون، ومن ثم تتفاوت حقوقهم دون أن يعني هذا التفاوت انتقاصاً من مساواتهم في الحرية التي قررها لهم الاسلام.

ذلك هو موقف الاسلام من التمييز بين شهادة الرجل وشهادة المرأة في ذلك الموطن المحدد والخاص من مواطن الاشهاد.. ويتأكد هذا الذي نقول اذا نحن تدبرنا آيات القرآن التي تتحدث عن هذه القضية فنقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً، فإن كان الذي عليه الحق

سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل، واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها، وأشهدوا اذا تبايعتم، ولا يضار كاتب ولا شهيد، وان تفعلوا فانه فسوق بكم، واتقوا الله، ويعلمكم الله، والله بكل شيء عليم﴾[1].

فليس في الأمر تمييز طبيعي ودائم ولا تمييز مطلق ينقص من قدر المرأة وما قرر لها الاسلام من حرية ومسؤولية وحقوق..

وتحرر من العصبية القبلية:

وكذلك كانت ثورة الاسلام تحريراً للانسان العربي من قيد العصبية القبلية الضيق وأفقها المحدود، وانطلاقاً به الى اطار القومية ذات المحتوى الانساني والصبغة الحضارية.. فبعد أن كانت القبيلة هي الوحدة التي تنتهي عند حدود نسبها روابط الولاء وتبعاته، أصبحت هذه القبيلة، منذ دستور دولة المدينة ـ الذي عرف بـ « الصحيفة » وبـ « الكتاب » ـ اللبنة الأولى في الكيان القومي العربي الموحد، والذي كان بمثابة الوجه الثاني لعملة واحدة، وجهتها الأولى: التوحيد، في الدين، لذات الاله.. فلم تعد القبيلة هي نهاية المطاف، ادارياً وسياسياً واجتماعياً، بل غدت الوحدة الأولية في الجماعة القومية العربية التي وحدتها ثورة الاسلام ودولته..

بل لقد خطا الاسلام الى أفق أبعد، وخاصة بعد فتوحات أهله التي حررت الشرق من البيزنطيين ومن الأسرة الساسانية الفارسية، عندما دعا

(١) البقرة: ٢٨٢.

قبائل العرب الى الاندماج في الشعوب التي فتحت بلادها، باعتبار ذلك تحقيقاً لقول الله في قرآنه الكريم: ﴿يا أيها الناس انا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم، ان الله عليم خبير﴾(١). . كما جاءت سنة الرسول، العملية والقولية، لتضع لهذا التوحد القومي مضموناً انسانياً وحضارياً وفكرياً يبتعد به عن العرق وعصبيته كما ابتعد به عن القبلية وتعصبها. . فليس يخفى السر الذي جعل تجربة دولة المدينة تبرز ضمن قادتها وقيادتها قادة مثل: بلال الحبشي (٢٠ هـ ١٤ م) كرمز لالتحام الموالي والرقيق ذوي الأصول الأفريقية السوداء في الجماعة القومية العربية، عن طريق علاقة « الولاء » التي ربطتهم بالقبائل التي كانوا لها عبيداً قبل أن يحررهم الاسلام. . و« الولاء ـ كما قررت السنة النبوية ـ لحمة كلحمة النسب »(٢). .

وكذلك كان الحال بالنسبة لقيادة: صهيب الرومي (٣٢ ق هـ ـ ٣٨ هـ ـ ٥٩٢ ـ ٦٥٩ م) وسلمان الفارسي (٣٦ هـ ـ ٦٥٦ م) ذلك أن مكانة هؤلاء القادة، المنحدرين من أصول عرقية غير عربية، والذين تعربوا بالحضارة والولاء، ان مكانتهم في المجتمع الجديد، وكانت عالية، انما تعكس وتعبر عن تلك الروابط التي ضمت هذه الجماعة القومية الجديدة، على اختلاف أصولها العرقية والجنسية. . فهم لم يكونوا مجرد « مؤمنين أتقياء » وانه كانوا رموزاً لأعداد متنامية أخذ الاسلام يحررها بالطريق التدريجي الذي سلكه لتصفية نظام الرقيق. . طريق: الحصر والتضييق لمصادر الاسترقاق، والتوسع في الأسباب التي تفك عن الأرقاء قيود الاسترقاق. والرسول ﷺ يبرز وزن هذه القيادات في تجربة الدولة القومية عندما يقول: «أنا سابق

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) رواه الدارمي.

العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة»!.

ولقد جاءت السنة القولية لتحدد وتؤكد ذلك المحتوى الحضاري، اللاعرقي، لهذه الوحدة القومية الجديدة، عندما قررت على لسان الرسول، عليه الصلاة والسلام: أن « ليست العربية بأحدكم من أب أو أم، وانما هي اللسان ـ (اللغة بالمعنى الحضاري الواسع) ـ فمن تكلم العربية فهو عربي »..

فكان ذلك انجازاً كبيراً على درب تحرر الاسلام للانسان، بثورته التي تجاوزت آفاق العصبية لقبلية الضيق الى رحاب الأفق القومي الواسع والمستنير.

وثورة اجتماعية كبرى:

وفي قضايا الثروة والمال والاقتصاد ـ (المسألة الاجتماعية) ـ كانت ثورة الاسلام أوضح ما تكون وأعمق ما تكون.. والاسلام، كدين، ومن خلال كتابه الكريم وسنته التشريعية الغامة، لم يحدد لمستقبل المسلمين نظرية اجتماعية بعينها ولم يشرع لمجتمعهم تشريعاً اقتصادياً دائماً بذاته، لأنه، وهو خاتم الرسالات، والمقرر أن الله في كونه سنناً، منها سنة التطور والتحول والتغيير، ما كان له أن يضع القيود المسبقة على المصالح المتجددة والمتغيرة، خصوصاً وهو الذي قرر، كما أشرنا، الى أن ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن!.. ولكنه ـ في المسألة الاجتماعية ـ وضع فلسفة تشريع، ولم يضع تشريعاً، ودعا الى معيار توزن به الأمور عندما تتعارض المصالح والرغبات، وقرر أطراً عامة حث على أن تتم الحركة في داخلها، ثم ضرب الأمثلة التشريعية للواقع الذي ظهر فيه، توضيحاً وتقنيناً، ثم جاءت تجربة دولة الخلافة الراشدة فطورت بعض هذه الأمثلة التشريعية وعدلت بعض هذه القوانين، فكان أن ثبت بالقطع أن الاسلام، كدين، قد وقف عند

تقرير فلسفة التشريع المالي وحكمة الموقف الاجتماعي دون أن يقيد خطى المسلمين المستقبلة أو يكبل تجاربهم الاجتماعية بالنصوص والقوالب والنظريات . .

واذا شئنا ايجازاً يكثف فلسفة الاسلام الاجتماعية فإن باستطاعتنا أن نقول: انه قد انحاز كل الانحياز الى صف مجموع الأمة وعامتها، وانتصر لمصالح العاملين من أبنائها . . ثم ترك للواقع المتطور والمتغير أمر الاختيار والصياغة لما يحقق هذه المقاصد من نظريات وقوالب وتشريعات . .

والاسلام عندما انحاز الى مجموع الأمة، في المسألة الاجتماعية، لم يكن يبدأ من فراغ . . فهو قد ظهر في مجتمع تغلب عليه البداوة والبساطة، وكانت القبيلة فيه وحدة متحدة، يملك مجموع أبنائها، متكاملين، وعلى نحو جماعي، كل مصادر ثروتها، بل وجميع أدوات كسب عيشها، باستثناء أسلحة القتال. وبعد أن كانت القبيلة كياناً ادارياً وسياسياً مستقلاً، الى حد كبير، جاءت دولة العرب المسلمين لتجعل هذه القبيلة لبنة في بناء الأمة الاجتماعي والقومي الجديد . . وكان أن انتقل الاسلام بملكية مصادر الثروة الأساسية في المجتمع الى مجموع الأمة . . لقد كانت الملكية عامة في القبيلة، عندما كانت هي « دولة » البداوة قبل التوحيد، فأصبحت الملكية عامة في الأمة بعد التوحيد القومي الذي شرعه الدين ونهضت دولته لاقامته . .

والقرآن الكريم . . والسنة النبوية . . وتجربة عصر النبي والخلفاء الراشدين . . زاخرة جميعها بالأدلة على هذا الانحياز الى مجموع الأمة، في المسألة الاجتماعية، باعتباره فلسفة التشريع الاجتماعي للاسلام . .

فالمال في الاسلام هو مال الله، أودعه في الطبيعة، فيضاً الهياً، ورصده وسخره للبشر جميعاً، وبالعمل تتحدد السبل والمقادير التي بها يصيبون ولها ينالون من هذا المال . . هو مال الله، وحق الله، كما قرر الاسلام ـ هو حق المجتمع، لا حق فئة أو طبقة . . هو مال الله، والمستخلف فيه عن الله

الناس، والبشر، والأنام أجمعون!..

فالأرض جميعها، بما استكن في باطنها وما حملت على ظهرها قد جعلها الله للأنام جميعاً: ﴿والأرض وضعها للأنام﴾[١]..

والمجموع - بدليل مصير الجمع - هم الخلفاء والمستخلفون عن الله في ماله: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[٢]..

والله هو الذي أفاض المال على خلقه وأمدهم به: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾[٣]..

وكما لا يتصور انسان أن يمتلك الأب أبناءه فيتصرف فيهم كيف يشاء، كذلك لا يتصور - وفق منطق القرآن - أن يمتلك الانسان المال فيتصرف فيه كيف يشاء، لأن كلا من المال والبنين مدد من الله أمد بهما الانسان: ﴿أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات، بل لا يشعرون﴾[٤] - ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً. وجعلت له مالاً ممدوداً. وبنين شهوداً ﴾[٥]. ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾[٦].. ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾[٧]..

ثم تأتي السنة النبوية لتزكي هذا الموقف القرآني، ولتحدد: ماذا للانسان كانسان، في هذا المال الذي قرر القرآن أنه عام؟؟.. فتحدد أن ما للانسان هنا هو: حاجته، وفق العرف، وفي المتوسط المألوف، وليس ما فضل وزاد عن الاحتياجات.. وهي تقرر هذا الموقف عندما تميز بين المال، على اطلاقه، وهو لله، وبين ما يصح أن يقول عنه الفرد: هذا مالي!..

(١) الرحمن: ١٠.
(٢) الحديد: ٧.
(٣) النور: ٣٢.
(٤) المؤمنون: ٥٥، ٥٦.
(٥) المدثر: ١١ - ١٣.
(٦) الاسراء: ٦.
(٧) نوح: ١١، ١٢.

يقول الرسول، ﷺ: « يقول العبد: مالي، مالي!! وانما له من ماله **ثلاث، ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى**[١]. . » وفي رواية ثانية: « يقول ابن آدم: مالي، مالي!! هل لك من مالك الا ما تصدقت فأمضيت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت؟! »[٢] وفي رواية ثالثة: « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر. . يقول ابن آدم: مالي، مالي!! وانما لك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت »[٣].

ولقد أخبر الرسول أصحابه أن مال أحدهم هو حاجاته واحتياجاته، أما ما سوى ذلك فهو مال ورثته، وليس ماله، وأن الذين يحرصون على ما زاد عن الحاجة انما يحبون أموال غيرهم، لأنها القدر الزائد عن الاحتياجات؟!. . يقول، عليه الصلاة والسلام: « أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله؟! قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد الا ماله أحب اليه من مال وارثه. فقال: اعلموا أنه ليس منكم من أحد الا مال وارثه أحب اليه من ماله! **مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت؟!** »[٤].

والاسلام عندما انحاز، في المسألة الاجتماعية، الى مجموع الأمة، وجعل الاحتياجات معياراً للحياة، انما كان يستهدف تفادي المخاطر والمضار التي تنشأ عن تركز ثروة الله ـ ثروة الأمة ـ بيد قلة من الأغنياء يتداولونها ويتبادلونها ويحتجزونها فيما بينهم، لأن في ذلك الفساد كل الفساد، في المادة والفكر، في الدنيا وفي الدين. .قرر الإسلام ذلك، وضرب عليه الأمثلة وقدم بين يديه المواعظ والعبر من تجربة البشرية عبر تاريخها الطويل. .

فالثروة يجب أن توزع، وفق الاحتياجات، وذلك حتى لا يزداد غنى

---

(١) رواه مسلم وابن حنبل.

(٢) رواه مسلم وابن حنبل والترمذي.

(٣) رواه النسائي.

(٤) رواه النسائي.

الأغنياء فيصبح المال حكراً عليهم يتداولونه دولة بينهم: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، **كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم**، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب﴾(١).

وفي العديد من سور القرآن الكريم تطالعنا الآيات التي تقدم الصور غير المستحبة، بل والكريهة، للأغنياء والمستغنين، سواء أكانوا في المجتمع المحمدي أم فيما سبقه من المجتمعات..

فالاستغناء سلم يقود الانسان الى الطغيان، بل ان القرآن يكاد أن يجعله قانوناً يقضي بوجود الطغيان عند وجود الاستغناء: ﴿**كلا ان الانسان ليطغى. أن رآه استغنى**﴾(٢)!

والذين احتازوا الثروات واحتكروا الأموال، على مر التاريخ، كانوا هم المناوئين لرسل الله ورسالات السماء..

﴿**قال نوح: رب، انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خساراً**﴾(٣).

وفي قوم نبي الله شعيب كان دعاة الشرك هم الأثرياء المستمسكون بحريتهم المطلقة فيما يحتكرون ويحتازون..

﴿**قالوا: يا شعيب، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟!**﴾(٤).

وسنة أخرى من سنن الله في الكون يطالعنا بها القرآن: ان هلاك القرى

(١) الحشر: ٧.
(٢) العلق: ٦، ٧.
(٣) نوح: ٢١.
(٤) هود: ٨٧.

وانهيار الحضارات وتحلل المجتمعات وابادتها لابد مقترن بسيطرة « المترفين » من أبنائها: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[1] ـ ومن القراء من يقرأ: « أمرنا » بتشديد الميم مفتوحة.. أي جعلنا هؤلاء المترفين أمراء في هذه المجتمعات وحكاماً..

ذلك لأن المترفين كانوا، دائماً، هم المناوئين لرسل الله ولرسالات السماء.. ومناوأتهم هذه بلغت ـ كما يحكي القرآن ـ مبلغ القانون!..

﴿وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها: انا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾[2].

﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا: ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون. ولئن أطعتم بشراً مثلكم انكم اذا الخاسرون﴾[3].

والمترفون، عادة، هم أهل الجمود والمحافظة على القديم البالي: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها: انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون﴾! [4]

والترف، في ذاته، قوة تقود هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم به الى مواقع الاجرام والمجرمين: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾![5].

وهم بعد أن اعتقدوا أحقيتهم في احتكار الثروة قد اعتقدوا أحقيتهم في احتكار النبوة والرسالة ﴿وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم؟!.. (الوليد بن المغيرة ـ عظيم مكة ـ وعيسى بن مسعود الثقفي ـ عظيم الطائف ـ) ﴿أهم يقسمون رحمة ربك؟!..﴾[6].. كما اعتقدوا

(١) الاسراء: ١٦.
(٢) سبأ: ٣٤، ٣٥.
(٣) المؤمنون: ٣٢، ٣٣.
(٤) الزخرف: ٢٣.
(٥) هود: ١١٦.
(٦) الزخرف: ٣٢.

أحقيتهم في احتكار الملك: ﴿وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالـوت ملكاً، قالوا: انى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بـالملك منه، ولم يؤت سعة من المال؟!﴾[1].

تلك هي مـواقفهـم، عبر التـاريخ، ومختلـف المجتمعـات، تتحدث عنها آيات القرآن.. ثم تطالعنا بالمصير السيىء الذي أعده الله لهؤلاء المترفين والمستغنين: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين. فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون. لا تركضوا وارجعوا الى ما أتـرفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون. قالوا: يا ويلنا انا كنا ظالمين، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾[2].. ﴿حتى اذا أخذنـا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون. قد كانت آيـاتي تتلى عليكم فكنتم عـلى أعقابكم تنكصـون. مستكبـرين بـه سـامـراً تهجرون﴾[3].. ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. في سموم وحميم. وظل من يحموم. لا بارد ولا كريم. انهم كـانوا قبـل ذلك مترفين﴾[4].. ﴿وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسره للعسرى. ومايغني عنه ماله اذا تردى﴾[5].. ولقد كان الدمـار والبوار نصيب ذلـك الذي استغنى فغره غناه حتى ظلم نفسه وقال لصاحبه: ﴿أنا أكثر منـك مالاً وأعـز نفراً. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منهامنقلبا﴾[2].. ويوم القيامـة لن تغني عنهم أمـوالهم ولن ينفعهم ما حقق لهم الثـراء من سلطان: ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول: يا ليتني لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه. يا ليتها

---

(١) البقرة: ٢٤٧.
(٢) الأنبياء: ١١ ـ ١٥.
(٣) المؤمنون: ٦٤ ـ ٦٧.
(٤) الواقعة: ٤١ ـ ٤٥.
(٥) الليل: ٨ ـ ١١.
(٦) الكهف: ٣٤ ـ ٣٦.

كانت القاضية. ما أغنى عني ماليه. هلك عني سلطانيه﴾[١]. ﴿تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى ناراً ذات لهب﴾[٢]. . ﴿ويل لكل همزة لمزة. الذي جمع مالاً وعدده يحسب أن ماله أخلده، كلا لينبذن في الحطمة﴾[٣].

ثم تأتي السنة النبوية لتزكي موقف القرآن من المستغنين والمترفين، أولئك الذين احتكروا ما زاد عن حاجاتهم من الثروات والأموال، فحالوا بين الأنام وبين الاستخلاف في مال الله. . . يقول أبو ذر الغفاري: « جئت الى النبي، ﷺ، وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني مقبلاً قال: هم الأخسرون ورب الكعبة! قلت: من هم، فداك أبي وأمي؟!. . قال: الأكثرون أموالاً، الا من قال هكذا، وهكذا، وهكذا - (من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله) - وقليل ما هم؟![٤]». . أي الا الذين أنفقوا عن يمينهم وعن شمالهم وأمامهم وخلفهم، فعمموا في الناس ما زاد عن حاجاتهم. . وهؤلاء: « قليل ما هم.» من بين المستغنين والمترفين - (الأكثرون أموالاً) - حسب تعبير الرسول، عليه الصلاة والسلام!. .

وهذا الموقف الذي اتخذه الاسلام من « المستغنين » و « المترفين » و «الأثرياء»، وما صورهم به القرآن من منكر الصور، وما تنبأ لهم به من سيىء المصير، لا يعني تحبيذه للفقر والحاجة والمسكنة. . انه يعادي الترف واحتكار مال الله، كي تتم ارادة الله باستخلاف خلقه في ماله، وحتى يزول « الترف » و « العوز » معاً. . فهو ينهى عن « الكنز » و « الاكتناز »، أي

---

(١) الحاقة: ٢٥ - ٢٩.

(٢) المسد: ١ - ٣.

(٣) الهمزة: ١ - ٤.

(٤) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

الضم والجمع لما زاد عن الحاجة من الأموال، ويدعو الى انفاق فضول الأموال، أي ما زاد عن الحاجة منها، للمستحقين. . يقول الله سبحانه: ﴿. . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[1].

ومذهب أبي ذر الغفاري: أن ما زاد عن حاجة الانسان فهو كنز، سيكوي به ويعذب يوم القيامة، حتى وان أخرج عند الزكاة. . وهو أيضاً مذهب علي بن أبي طالب، الذي قرر أن الحد الأقصى لنفقة الانسان أربعة آلاف درهم « وما كثر عنه فهو كنز وان أديت زكاته »[2]. .

وفي اثبات هذا المذهب يروي أبو ذر عن الرسول، ﷺ، قوله: «من جمع ديناراً أو درهماً أو تبراً أو فضة ولا يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة »[3] روى ثوبان قول الرسول: « ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض الا جعل الله لهبكل قيراط صفيحة يكوى بها من فرقه - (الطريق في شعر الرأس) - الى قدمه، مغفوراً له بعد ذلك أو معذباً »[4]. . ويروي أبو هريرة: « من ترك عشرة آلاف جعلت صفائح يعذب بها صاحبها يوم القيامة »[5]. .

ويؤيد هذا المذهب وذلك التفسير لمعنى « الكنز »[6] تحديد القرآن

---

(١) التوبة: ٣٤، ٣٥.
(٢) أنظر القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ ٨ ص ١٢٣. طبعة دار الكتب المصرية.
(٣) المصدر السابق. جـ ٨ ص ١٣١.
(٤) المصدر السابق. جـ ٨ ص ١٣١.
(٥) المصدر السابق. جـ ٨ ص ١٣١.
(٦) يروى عن ابن عمر مذهب آخر في الكنز يرى ان ما أخرجت زكاته لا يعد كنزاً. أنظر المصدر السابق. جـ ٨ ص ١٢٣.

الكريم للقدر الواجب انفاقه من المال الذي يحوزه الانسان، وقوله **ان ما يجب انفاقه هو: العفو، أي ما زاد وفضل عن حاجة العيال**.. فعندما ثارت هذه القضية، وسأل المسلمون الرسول عنها نزل قول الله سبحانه: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل: العفو، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾[1]. والجمهرة من امفسري القرآن، من الصحابة والتابعين، على أن «العفو»: هو ما فضل عن العيال. فالمعنى: انفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة».. ومن هؤلاء المفسرين: عبد الله ابن عباس (٣ ق.هـ. ـ٦٨ هـ ٦١٩ ـ ٦٨٧ م) والحسن البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) وقتادة بن دعامة السدوسي (٦١ ـ ١١٨ ـ ٦٨٠ ـ ٧٣٦ م) وعطاء بن دينار (١٢٦ هـ ٧٤٤ م) والسّدّي، اسماعيل ابن عبد الرحمن (١٢٨ هـ ٧٤٥ م) والقرظي محمد بن كعب، وابن أبي ليلى، محمد بن عبد الرحمن (٧٤ ـ ١٤٨ هـ ٦٩٣ ـ ٧٦٥ م)[2].

وتأتي السنة النبوية لتدعم هذا التفسير وهذا المذهب.. فأبو سعيد الخدّري يروي عن رسول الله، ﷺ، حديثاً يقرر فيه أنه لا حق لمسلم فيما فضل وزاد عن حاجته، وأن الواجب هو دفع هذا الفضل ـ (الزيادة) ـ الى من لا مال عنده.. يقول الرسول: «من كان عنده فضل من ظهر ـ (دابة ركوب) ـ فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له».. ويكمل الرازي الحديث بلفظه فيقول: ان الرسول قد «ذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل!»[3]..

كما يروي ابن عباس، عن الرسول، الحديث الذي يقرر «شركة»

(١) البقرة: ٢١٩.

(٢) (الجامع لأحكام القرآن) جـ٣ ص ٦١.

(٣) رواه مسلم وابن حنبل.

الناس و « اشتراكهم » في المصادر الأساسية للثروة بمجتمع شبه الجزيرة يومئذ. . يقول: « المسلمون شركاء في ثلاث: الماء، والكلأ والنار. وثمنه حرام »!. . وفي رواية أبي هريرة: « ثلاث لا يمنعن: الماء والكلأ والنار ». . وعن رواية عائشة أنها سألت الرسول:

- « يا رسول الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ . فقال:
- الماء والملح والنار »[1].

ومصادر الثروة هذه، وما شابهها، يتحدد اختصاص الانسان منها وكسبه فيها بالعمل، ما سبق وتحددت لحيازته حدود قصوى يكون ما بعدها « كنز » و « فضل » يجب رده الى من لا مال عنده. .

فالأرض الميتة لمن أحياها، وداوم على استثمارها، وسعيد بن زيد يروي عن الرسول قوله: « من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حق »[2]. . وهذا الحديث الذي يخصص الأرض بالعاملين فيها، يجعل فكر الاسلام الاجتماعي، لانحيازه الكلي « للعمل »، يقف مع الشعار المعاصر: « الأرض لمن يفلحها»!. . بل اننا نجد في السنة النبوية أحاديث أخرى تدعو الى ذلك صراحة، وتنهى عن « كراء » الأرض وتأجيرها. . فتأجير الأرض نظام عرفه مجتمع المدينة في عهد الرسول، ثم نهى عنه الرسول. . يروي رافع بن خديج فيقول: « كنا نحاقل لأرض على عهد الرسول، ﷺ، فنكريها بالثلث والربع والطعام المسمى. فجاءنا ذات يوم رجل من عمومتي فقال: نهانا رسول الله، ﷺ، عن أمر كان لنا نافعاً! وطواعية الله ورسوله أنفع لنا، نهانا أن نحاقل الأرض فنكريها على الثلث والربع والطعام المسمى، وأمر رب الأرض أن يزرعها (بفتح الياء) - أو

---

(١) روى هذه الأحاديث ابن ماجه وابن حنبل.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود.

يزرعها ـ (بضم الياء) ـ وكره كراءها، وما سوى ذلك »[١]. . ويزيد معنى هذا الحديث الناهي عن كراء الأرض وتأجيرها، وضوحاً وحسماً ما يرويه جابر بن عبد الله، عن الرسول، ﷺ، يقول: « من كانت له أرض فليزرعها، ان لم يستطع أن يزرعها، وعجز عنها، فليمنحها أخاه المسلم، ولا يؤجرها اياه، ولا يكرها »[٢]. .

ويزيد من أهيمة هذه الأحاديث، التي تقرر « أن الأرض لمن يفلحها »، يزيد من أهميتها وخطورتها في فكر الاسلام الاجتماعي أنها تتعدى الفكر النظري، وتقطع بأن مدلولها قد تحول الى ممارسة وتطبيق. . فلقد كان المسلمون يكرون الأرض ويؤجرونها، وكان هذا الأمر نافعاً للمؤجرين، فنهى عنه الرسول، فامتثلوا، ومنحت الأرض لفالحها، لأن طواعية الله ورسوله أنفع للمسلمين! . .

وفي المدينة، عقب هجرة الرسول، ﷺ، اليها شهدت الشهور الأولى من عمر الدولة الوليدة تجربة « المؤاخاة » التي جسدت فلسفة الموقف الاجتماعي للاسلام ودولته. . ففي البداية « آخى » الرسول بين المهاجرين بعضهم مع بعض. . ثم « آخى » بينهم وبين الأنصار. . وكان المهاجرون قد أجبروا على الخروج من ديارهم وأموالهم هرباً بعقيدتهم وحفاظاً على ايمانهم، بينما كان الأنصار يعيشون في وطنهم ومالهم، «فأشركت» المؤاخاة المهاجرين مع الأنصار، وأقام هذا التنظيم الاجتماعي الجديد للمهاجرين في أموال الأنصار حقوقاً تساوي حقوق الذين تجمعهم معاً صلات الأرحام والأنساب. . لقد كانت « المؤاخاة » عقداً اجتماعياً « اشترك » فيه وبه « المتآخون » في ثلاثة أشياء:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه.

١ ـ في الحق. . ويعني التناصر والتآزر في الجانب الروحي والمعنوي للبناء الجديد الذي مثلته دولة المدينة، والذي يحدده الدين. .

٢ ـ وفي المؤاساة. . وتعني المساواة والاشتراك في أمور المعاش ومصادره. .

٣ ـ وفي التوارث. . كما يتوارث ذوو القربى والأرحام. .

ثم حدث أن أوحى الله الى رسوله بقوله﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم مغفرة ورزق كريم. والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، ان الله بكل شيء عليم﴾[1]. .فنسخت الآية التي تخمس التوارث في ذوي الأرحام بند التوارث من عقد المؤاخاة. . لكن الأمران الآخران في عقد المؤاخاة ظلا على حالهما دون نسخ، أي ظلت هذه التجربة الاجتماعية قائمة « يشترك » و و « يتشارك» أعضاؤها في « الحق » وفي « المؤاساة »، أي في جانبي الحياة، المعنوي والمادي[2]. .

وأشارت آيات القرآن التي حرمت الربا الى « العمل »، وقرنته ـ على سنة القرآن وطريقته ـ «بالإيمان»، وتحدثت عن أن للناس، فقط، رؤوس أموالهم، أما ذلك المال ـ الربا ـ الذي يثمره المال دون « عمل » فهو محرم، يجب اسقاطه، وبأثر رجعي. قالت تلك الآيات البينات: الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا: انما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا، فمن جاءه موعظة

(١) الأنفال: ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) أنظر: ابن عبد البر (الدرر في اختبار المغازي والسير) ص ٩٦. تحقيق: د. شوقي ضيف. طبعة القاهرة: سنة ١٩٦٦ م.

من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق الله الربا ويربي الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم. ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة، وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون[1]. ﴾

فتحريم الربا ـ وهو المال الناشئ عن مال دون عمل ـ يقطع بأن الفلسفة الاجتماعية للاسلام تقف مع المذهب القائل ان العمل هو الذي يعطي الأشياء قيمتها، وهو الأساس من الكسب وعليه المعول في التمايز والامتياز. . وهذه الفلسفة هي التي صاغها، من بعد، ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) عندما قال: «اعلم أن ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله، اذ ليس هناك الا العمل. . وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها، مثل النجارة والحياكة، معهما الخشب والغزل، الا أن العمل فيهما أكثر، فقيمته أكثر. . . ان المفادات والمكتسبات كلها، أو أكثرها، انما هي قيمة الأعمال الانسانية» (٢)

* * *

هكذا كانت ثورة الاسلام، أو الاسلام الثورة، في المسألة الاجتماعية. . وعلى هذا النحو كان المحتوى الاجتماعي الثوري الذي جاء به الاسلام عن قضايا المال والاقتصاد والثروات. .

(١) البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٨٠

(٢) (المقدمة) ص ٣٠٢. طبعة القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ.

لقد جعل المال مالاً لله.. منه فاض وعنه صدر، وجعل الناس جميعاً مستخلفين فيه.. وحدد العمل سبيلاً ومعياراً للاختصاص فيه والحيازة منه.. ونهى عن حيازة ما زاد عن الاحتياجات التي يحدد العرف والعادة حدودها القصوى.. ونبه على وجوب «الاشتراك العمومي» في المصادر الأساسية لثروة الأمة والمجتمع..

والمتصفح لحديث المال في القرآن يجد الكثير من الأدلة والبراهين على وضوح هذا الموقف الاجتماعي.. فكلمة «المال» اذا كانت قد أضيفت، في القرآن، الى ضمير «الفرد» سبع مرات، فإنها قد أضيفت الى ضمير «الجمع» سبعاً وأربعين مرة!.. حتى لقد قال الامام محمد عبده في ذلك: **إن الله، سبحانه، أراد أن ينبه بذلك على «تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها، فكأنه يقول: ان مال كل واحد منكم هو مال أمتكم؟!»**[1]..

ولقد كان وراء هذا الموقف الاجتماعي للاسلام مذهبه الذي امتازت وتميزت به حضارته، والذي يوازن بين النقائض ويتوسط بين قطبي الظاهرة، فالانحياز للمجموع، ومعالجة القضية الاجتماعية من منظور الجماعة يرفض تركز الثروة بيد القلة المترفة، ويتحاشى شيوع الفاقة بين الأغلبية، وهو ما حذر منه الاسلام وكرهه الى الناس عندما قرن النقص في الأموال بالجوع والخوف، أي بالعجز والشلل، المادي والمعنوي، عن النهوض برسالة الانسان في هذه الحياة﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأمال والأنفس والثمرات**، وبشر الصابرين﴾[2].

---

(١) (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده) جـ ٥ ص ٢٠١. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

(٢) البقرة: ١٥٥.

وأخيراً ـ يكثف القرآن الكريم موقفه الاجتماعي المنحاز الى مجموع العاملين، عندما يعلن أن ارادة الله، سبحانه، أن تكون القيادة والامامة ووراثة ما بالمجتمع من ثروات وامكانيات هي للمستضعفين في الأرض: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[1].

لكن.. ماذا عن التفاضل في الدرجات؟؟:

غير أن « شبهة » يثيرها الذين لا يفقهون منطق القرآن ولا يعون مدلول مصطلحاته، ويحاولون بها تبرير المظالم الاجتماعية وتصويرها كما لو كانت التحقيق لارادة إلهية أزلية وأبدية!.. وهذه « الشبهة » تعتمد على ما ورد في القرآن من آيات كثيرة تتحدث عن تفاوت « درجات » الناس، وارتفاع بعضهم « درجة » أو « درجات » عن الآخرين..

لكن الناظر في آيات القرآن، والباحث في مصادر تفسيره، لا يجد أية علاقة بين مصطلح « الدرجة » و «الدرجات»، كما استخدم فيه، وبين المسألة الاجتماعية والفكر الاجتماعي.. « **فالدرجة » ليست هي « الطبقة » بالمعنى الاجتماعي، بل لا علاقة البتة بين المعنيين والمدلولين.. فالطبقة، بالمعنى الاجتماعي، شريحة اجتماعية تتميز بمركز مالي واجتماعي خاص، على حين ترد « الدرجة » و « الدرجات » في القرآن للدلالة على الجزاء في الآخرة، والتفاوت فيها هو التفاوت في المثوبة والتكريم الأخروي والمعنوي الذي يناله الانسان لقاء ما قدمت يداه من حسنات..**

*فللرجال على النساء درجة.. ولا علاقة لذلك بالنظام الطبقي وتفاوت الطبقات..

---

(١) القصص: ٥.

* وقال تعالى ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة . . ﴾[١] . أي ارتفاعاً في المنزلة عند الله[٢] . .

* و﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾[٣] . . أي أعلى مرتبة وأكثر كرامة يوم القيامة[٤] . .

* وأنبياء الله يتفاوتون، اذ ﴿منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾[٥] . . وهي مراتب لا يعقل أن تكون لها علاقة بالأوضاع الطبقية والاجتماعية[٦] . .

﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. درجات منه ومغفرة ورحمة﴾[٧] . . ودرجاتهم هذه هي: منازلهم في الجنة[٨] ـ هكذا، وعلى هذا النحو يورد القرآن مصطلح « الدرجة » في المواطن الأربعة التي ورد فيها، ومصطلح « الدرجات » في المواطن الأربعة عشر التي ورد فيها، ويريد به: المثوبة والكرامة في الآخرة، دون أن تكون لهذه المواطن وآياتها أية صلة بالفكر الاجتماعي وفلسفة الاسلام في الأموال والاقتصاد . .

وحتى آيات « الزخرف » التي تقول: ﴿ولما جاءهم الحق قالوا: هذا سحروإنا ، كافرون. وقالوا: لولا نزل به القرآن على رجل من القريتين عظيم؟!. أهم يقسمون رحمة بك؟!، نحن قسمنابينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً،

(١) النساء: ٩٥.
(٢) أنظر: تفسير البيضاوي. ص ١٥٠. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م.
(٣) التوبة: ٢٠.
(٤) تفسير البيضاوي ص ٢٧٧.
(٥) البقرة: ٢٥٣.
(٦) تفسير البيضاوي ص ٨٠.
(٧) النساء: ٩٥، ٩٦.
(٨) تفسير البيضاوي، ص ١٥٠.

ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾[١]. حتى هذه الآيات فانها لا تشهد للذين يريدون للمظالم الاجتماعية والتفاوت الاجتماعي الظالم سنداً من القرآن.. لأنها تتحدث عن منطق المترفين من المشركين، أولئك الذين استنكروا اصطفاء الله لنبي فقير، وتساءلوا منكرين: لماذا لم ينزل القرآن على عظيم مكة: الوليد بن المغيرة؟! أو عظيم الطائف: عيسى بن مسعود الثقفي؟!.. فهم، انطلاقاً من منطقهم الطبقي يريدون النبوة، هي الأخرى، امتيازاً طبقياً.. لكن الله، سبحانه، يسفّه من منطقهم ومعيارهم الطبقي هذا، لأنه وليد تنظيم اجتماعي ظالم وفاسد، ارتفع فيه البعض فوق البعض درجات، فسخره وسخر منه.. فالقرآن هنا لا « يشرع »، وانما « يصف » واقعاً ظالماً أثمر منطقاً ظالماً مرفوضاً، اذ لا يعقل، بداهة، ان يقصد شرع الله وتشريعه الى جعل قلة من الناس تسخر الكثرة وتسخر منها.. فالمقام هنا مقام الوصف، بل والادانة، وليس مقام التحبيذ أو التشريع..

أما التفاوت في « الرزق » والتفاضل فيه، والذي تتحدث عنه آية: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم فهم فيه سواء، أفبنعمة الله هم يجحدون﴾[٢].. فإن وعي المعنى المراد بمصطلح « الرزق » هنا يجعل الآية متسقة تماماً مع الموقف الاجتماعي الذي اتخذه القرآن، والذي تحدثنا عنه، فالمراد « بالرزق » الاحتياجات.. وبديهي أن تتفاوت وتتفاضل احتياجات الناس، مأكلاً وملبساً ومسكناً.. الخ.. الخ.. كما وكيفا.. وهذا هو المراد بتفاوت « الرزق » والتفاضل فيه، اذ لا علاقة لمصطلح « الرزق » بمدلول مصطلحات مثل « الكسب » و « الملكية » و «الحيازة).. الخ..

---

(١) الزخرف: ٣٠ ـ ٣٢..

(٢) النحل: ٧١.

الخ . . ويشهد بهذا الذي نقول حديث ابن خلدون عن أن : المكاسب، اذا كانت بمقدار الضرورة والحاجة فهي « معاش »، أما ان زادت عن الحاجة فهي تسمى « رياشاً وتمولاً » أي دخلت في نطاق فضول الأموال التي دعا الاسلام الى ردها على المحتاجين ـ وأن القدر اللازم من « المكاسب » لمصالح الانسان وحاجاته هو الذي يسمّى « رزقاً » فإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة له«رزقاً»! . . ثم يورد ابن خلدون للدلالة على هذا التحديد حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « انما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت »[1] . . فهذه الاحتياجات هي « الرزق »، وفيها، بداهة، يقع التفاوت والتفاضل بين الناس، وهو التفاوت والتفاضل الطبيعي، ولا علاقة لذلك بالتفاوت الطبقي أو الظلم الاجتماعي، كما يوهم أو يتوهم نفر ممن يشوهون أو يظلمون الفكر الاجتماعي للاسلام . .

هكذا ظهر الاسلام في حياة الانسان العربي، وفي واقع شبه الجزيرة العربية . .

ثورة في الفكر السياسي جعلت الشورى فلسفة نظام الحكم ـ (في دولة الخلافة الراشدة).

وثورة لتحرير ذات الانسان العربي من الجبر والقدر وظواهر الطبيعة والاطار الضيق للتعصب القبلي . .

وثورة لتحرير المرأة والارتقاء بها كي تلحق بالرجل . .

وثورة لتحرير الرقيق، تدريجياً، ولدمجهم، « بالولاء »، قومياً، مع العنصر العربي، في اطار يحظى بمضمون انساني مستنير . .

---

(١) المقدمة : ص ٣٠٢ .

وثورة لتحرير الانسان، اجتماعياً، من العوز والاستغلال، بالانحياز للمجموع، وتقرير الاشتراك العمومي « في ثروات الأمة، وجعل « العمل » معياراً للكسب الحلال وللتفاوت في الأرزاق.

ولقد ظل هذا المضمون الثوري لثورة الاسلام العربية محور الصراع في المجتمع العربي بين تيار الثورة، بفرقها وتياراتها وتنظيماتها وطبقاتها، وبين أعدائها. . . فالذين تمسكوا بهذا المحتوى الثوري لثورة الاسلام كانوا هم دائماً أعداء « الثورة »، كوسيلة من وسائل التغيير ـ والذين شرعوا « الثورة » سبيلاً للتغيير كان الهدف من ثوراتهم، في الأغلب الأعم، محاولة العودة بالمجتمع وتبني المحتوى الثوري لثورة الاسلام؛ سواء في الفكر النظري أو الممارسة والتطبيق. .

الثورة على حكم عثمان بن عفان

في عهد عمر بن الخطاب (٤٠ ق. هـ - ٢٣هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م) اكتملت للدولة العربية الاسلامية فتوحاتها الكبرى، وعند ذلك بدأ طور جديد في حياة هذه الدولة وذلك المجتمع، فلقد دخلت في هذا الاطار شعوب ذات ثروات وحضارات ومواريث، الأمر الذي استدعى قيام بناء اداري وسياسي وتشريعي يلبي احتياجات هذا الواقع الجديد، ويتخذ مادته ويستلهم مواده من مواريث هذه الشعوب وتراث تلك الحضارات، بعد عرضها على موازين العدل وفلسفةالشورى التي أوصى بها الدين الجديد.

لكن الاختلاف الذي طرأ على طبيعة المجتمع وفي بنيته، ثراء، وحضارة، وفي النظم الطبقية ذات العراقة والتقاليد.. الخ.. الخ.. قد أوجد فجوة بين الواقع المادي الجديد، الذي دخل في اطار الدولة بعد الفتح، وبين الفكر الاجتماعي الثوري والتنظيم الاجتماعي شبه الجماعي الذي أقامه المسلمون الأوائل في مجتمع شبه الجزيرة، البسيط، والملائم للجماعية الى حد كبير..

لقد نشأ، في اطار الدولة، واقع جديد، يثير مشكلات جديدة، ويستدعي جديداً في الحلول والاجتهادات..

ولم يكن الأمر سهلا، ولا كانت الحلول جميعها ميسرة أمام السلطة الاسلامية وهي تعالج مشكلات ذلك الواقع الجديد.. وفي مقدمة تلك المشكلات جاءت مشكلة الثراء العريض الذي وضعته الفتوحات الكبرى بين يدي المسلمين الفاتحين.. فالموقف من أرض العراق والشام ومصر كان مشكلة اختلف المسلمون من حولها حتى حسمت بالتحكيم.. وزيادة الثروة جعلت عمر بن الخطاب يعدل عن سنة النبي وأبي بكر في التسوية بين الناس في العطاء فقرر التمييز والمفاضلة متخذاً معياره: السبق الى الاسلام.. كما أن هذا الثراء الجديد والعريض قد حرك في نفوس أشراف قريش والسادة القدماء لمجتمعها القديم تطلعات وتطلعات.. والصورة التي تعبر عن المخاطر التي نشأت بذلك المجتمع نتيجة لذلك الثراء الجديد، هي صورة عمر بن الخطاب عندما حملت اليه كنوز أكاسرة الفرس، ووضعت في فناء المسجد، وانعكست عليها أشعة الشمس فلمعت وحميت! وتشاور المسلمون، أيوزعونها بالعد؟ أم بالمكاييل؟!.. وكانت المفاجأة عندما نظر عمر لهذه الكنوز وبكى!.. ولما سئل ذلك السؤال الاستنكاري: كيف تبكي يا أمير المؤمنين في موطن الرضى والشكر؟! أنبأهم أنه يدرك المخاطر التي تحملها هذه الكنوز الى النفوس!!.

ومنذ ذلك التاريخ اجتهد عمر وجاهد كي يحاصر هذه المخاطر، ويطاردها اذا هي أطلت برأسها في المجتمع الجديد..

* فالأرض الزراعية تقرر أن تكون ملكية رقبتها لبيت المال، وأن يكون خراجها مصدراً لمصرف الأمة وجهاز دولتها.. فمنع ذلك التشريع حيازة الجند الفاتح لأودية الأنهار في مصر والشام والعراق، وأنقذ الفلاحين في هذه الأرض من وضع الرقيق.

* وأشراف قريش، أصحاب التطلعات الطموحة للثراء العريض، حجر عليهم عمر مغادرة العاصمة، فكان الواحد منهم لا يغادرها الا بإذن

من الخليفة، ولأجل محدد. وقال في ذلك عمر قولته الشهيرة: «لآخذنّ بحلاقيم قريش لأمنعهم من أن يتجاوزوا الحرتين! » . . حتى لقد كان الرجل من هؤلاء الأشراف يطلب الى عمر أن يغادر المدينة غازياً في سبيل الله، فيقول له عمر: حسبك ثواب غزواتك مع الرسول عليه الصلاة والسلام؟! . .

* ومن بين ولايات الدولة الاحدى عشرة في الأقاليم، على عهد عمر، لم يكن لقريش الا ثلاثة ولاة، ولم يكن لبني أمية ـ الذين تتركز فيهم عصبية قريش ـ سوى وال واحد(١) . .

* وعندما أدرك عمر، أواخر عهده، أن التمييز بين الناس في العطاء قد أحدث ـ رغم عدله وشدته في الحق ويقظة ضميره كحاكم تؤرقه شؤون العدل بين رعيته ـ تفاوتاً في الثراء، عزم على التغيير، وأعلن أنه سيعود من العام المالي المقبل الى سنة الرسول وأبي بكر في التسوية بين الناس في العطاء، وقال في ذلك كلماته الشهيرة: « لو عشت من قابل لسويت بين الناس في العطاء » . . بل لقد عزم على جعل هذه التسوية «بأثر رجعي» ـ كما يقول تعبيرنا المعاصر ـ فقال: « لو عشت من قابل لأخذت فضول ـ (زيادات) ـ أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء »، وفي رواية أخرى: « والله لئن بقيت الى الحول لألحقن آخر الناس بأولهم، ولأجعلنهم رجلاً واحداً »(٢) . . ولكن عمر اغتيل قبل حلول الموعد الذي ضربه لتنفيذ هذا التغيير! .

وبموت عمر، افتقد المجتمع الاسلامي ذلك الحذر وتلك الشدة وهذه الحيطة التي تميز بها ذلك العادل المتفرد . . فاقتحم سادة قريش وأشرافها،

---

(١) د. طه حسين (الفتنة الكبرى) جـ ١ ص ٧٣، ٧٤، ١٣٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م.

(٢) (طبقات ابن سعد) جـ ٣ ق ١ ص ٢١٧ طبعة القاهرة.

خلف بني أمية، الأسوار التي حجزهم عمر وراءها، سالكين الى مطامعهم ومطامحهم ثغرات وجدوها في أسلوب الخليفة الجديد عثمان بن عفان..

فلقد استأثرت قريش بمعظم الولايات الاقليمية وأهمها.. وتعاقب الولاة منها على الأمصار، حتى قال الشاعر:

يلينا من قريش كل عام أمير محدث أو مستشار
لنا نار تحرقنا فنخشى وليس لهم، ولا يخشون، نار![1]

والحجر الذي فرضه عمر على سادة قريش وأشرافها قد زال، فخرجوا الى البلاد المفتوحة ذات الثراء، فكونوا العصبيات واحتازوا واحتاز الناس باسمهم الثروات، وأدرك الطبري ـ على قلة تحليلاته وتعليلاته ـ خطورة ذلك التطور وآثاره المدمرة في مجتمع الاسلام، فكتب يقول في تاريخه: ان عمر بن الخطاب كان «قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الا باذن وأجل.. فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان عمر يأخذهم به، **فخرجوا الى البلاد، فلما نزلوها ورأوا الدنيا، ورآهم الناس، فانقطع اليهم الناس.. وتقربوا اليهم، وقالوا: يملكون فيكون لنا في ملكهم حظوة؟! فكان ذلك أول وهن على الاسلام، وأول فتنة كانت في العامة!! ولذلك كان عثمان أحب الى قريش من عمر!** »[2].

وبعد التقشف الذي تميز به عمر، والتحرج الذي تميز به ازاء مال المسلمين العام ـ والذي أصبح مضرب الأمثال ـ وجدنا الواقع الجديد يفرز أفكاراً جديدة تزيل الحدود والحواجز بين مال الحاكم الخاص وما تحت ولايته من مال عام.. فمعاوية بن أبي سفيان، والي الشام، يعترض على قول أبي

---

(١) ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) جـ ٢ ص ١٢٩، جـ ١٧ ص ٢٤٢. طبعة القاهرة سنة ٩٥٩.

(٢) المصدر السابق جـ ١١ ص ١٢، ١٣.

ذر الغفاري: أن المال مال الناس، ويقول: انه مال الله، وان التصرف فيه من حقه، كحاكم، منحاً ومنعاً. . وعثمان لا يرى فارقاً بين أن يكون «الخازن» خازناً لبيت مال المسلمين أو خازناً لخليفتهم، الأمر الذي أدى الى غضب خازن بيت المال، وقوله: ان خازنك هو غلامك، أما أنا فخازن بيت مال المسلمين. . ولقد استقال الرجل بأن حمل مفاتيح بيت المال ووضعها على منبر المسجد عندما رفض عثمان أن يوقع صكاً يثبت أن عطاياه لبعض المقربين انما هي فرض في ذمته الوفاء به لبيت المال!

وعندما لغط الناس بأن الخليفة يأخذ من فضول أموالهم ما ينفقه في شؤونه الخاصة خطب فيهم فقال: «. . هبوني بنيت منزلاً من بيت المال، أليس هو لي ولكم؟!. . فلم لا أصنع في الفضل (أي الزيادة من حاجات الناس وعطائهم) ما أحببت؟! فلم كنت اماماً إذاً؟!!. . فما لي لا أفعل في فضول الأموال ما أفاء؟! »[1]. .

فهو فكر جديد أثمره واقع جديد. . والتفاوت في الثروة والثراء الذي بدت بوادره أواخر عهد عمر، فعزم على محوه، استشرى على عهد عثمان، فلم يعد الولاة يحاسبون كما كان الحال أيام عمر. . ونموذج الخليفة الفقير ـ كقدوة ـ لم يعد مألوفاً. . فأبو بكر ـ وكان من أغنياء القوم ـ مات معدماً، وعمر ـ وكان من أوسطهم مالاً ـ مات مديناً. . أما عثمان فكان أول خليفة يخلف ثروة طائلة، فلقد وجدوا، يوم مقتله، عند خازنه ١٥٠,٠٠٠ دينار ١٠٠٠,٠٠٠ درهم، وقدرت ضياعه بوادي القرى وحنين بـ ١٠٠,٠٠٠ دينار، الى غير ذلك من الخيل والابل والمقتنيات والممتلكات![2]. .

وعلى هذا النحو من الثراء تتحدث مصادر التاريخ، فتحصي ثروات

---

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ ٩ ص ٦، ٢٣.

(٢) المسعودي (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٣٤١، ٣٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م.

طائلة لعديد من أشراف المهاجرين، من مثل الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وكذلك لزيد بن ثابت، ويعلى بن منية. . وغيرهم كثيرون(١). .

* * *

وأمام هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي بدلت واقع المجتمع ومثل قياداته، لم يجد الرافضون لهذه التغييرات صعوبة أو حرجاً في الدعوة الى سلوك سبيل الثورة لتغيير هذا الواقع الجديد. . لم يجدوا صعوبة ولا حرجاً، لأن تراث الاسلام وتعاليمه ـ التي ألمحنا الى طرف منها ـ تنفي هذا الحرج، وتزكي اللجوء الى الثورة وتبارك سعي الثوار. .

وغير الجماهير التي همت بالثورة خلف أبي ذر الغفاري، بالشام والمدينة، قبل نفيه الى الربذة (٢). . والتي تململت من استئثار بني أمية بالسلطة والسلطان، كانت هناك (هيئة المهاجرين الأولين) التي كانت بمثابة حكومة دولة المدينة منذ الهجرة اليها، والتي قوامها: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبو عبيدة، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد. . وهي الهيئة التي تكونت من أشراف المهاجرين السابقين الى الاسلام، وفي عهد الرسول كانت لبيوتهم، التي تحيط بالمسجد ـ دار الحكومة ـ أبواب تفضي الى المسجد، من دون الناس. . كما كان لهم مكان خاص مع الرسول، فهم خلفه في الصلاة وهم أمامه في القتال!(٢).

ولقد استأثرت هذه الهيئة بالخلافة، دون الأنصار، منذ اجتماع السقيفة

---

(١) المصدر السابق. جـ ٢ ص ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٩.

(٢) ابن الأثير (أسد الغابة) جـ ٢ ص ٣٨٩، طبعة دار الشعب، القاهرة.

عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، فعقد اثنان منها ـ عمر وأبو عبيدة ـ لثالث منها ـ أبو بكر ـ . . عندما حضرت الوفاة أبا بكر استشار بقيتهم في العهد بها لعمر ـ وعندما حضر الموت عمر كان الباقون منها ستة، فكون منهم مجلس الشورى الذي اختار لها عثمان بن عفان . .

فلما حدثت الأحداث التي أشرنا اليها في السنوات الأخيرة من حكم عثمان، وجدت هذه الهيئة الدستورية أن سلطاتها قد اغتصبت منها، وأن بني أمية قد استأثروا بحقها الذي استقر لها منذ اجتماع السقيفة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . . فشارك أعضاء (هيئة المهاجرين الأولين) في التحريض على الثورة، بل لقد نهضت هذه الهيئة بالمهمة التي كانت العامل الحاسم في انهاء عهد عثمان بالثورة، عندما أصدرت بياناً دعت فيه ثوار الأمصار والأقاليم الى الزحف على العاصمة، لاحتلالها، وتغيير ما طرأ فيها وعليها، واعادة سلطاتها الدستورية والشرعية اليها . . ولقد أورد ابن قتيبة نص هذا البيان الذي يقول فيه (المهاجرون الأولون) لأهل مصر:

« بسم الله الرحمن الرحيم . . من المهاجرين الأولين وبقية الشورى الى من بمصر من الصحابة والتابعين . . أما بعد، أن تعالوا الينا، وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها، فإن كتاب الله قد بدل وسنة رسوله قد غيرت، وأحكام الخليفتين قد بدلت. فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان الا أقبل الينا وأخذ الحق لنا وأعطاناه، فأقبلوا الينا ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه الخلفاء. غلبنا على حقنا، واستولي على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة، وهي اليوم ملكاً عضوداً، من غلب على شيء أكله! »[1].

---

(١) (الامامة والسياسة) جـ ١ ص ٣٢. طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

ولقد استجاب ثوار الأمصار والأقاليم لهذا النداء، فزحفوا الى العاصمة، وأرسلوا علي بن أبي طالب بمطالبهم الى الخليفة: **أن يعزل الولاة، ويرد المظالم، ويعيد النهج الذي كان عليه عمر بن الخطاب**.. ولما لم يستجب عثمان، اقتحم المدينة ثوار الكوفة يقودهم مالك بن الحارث النخعي، وثوار البصرة يقودهم حكيم بن جبلة العبدي، وثوار مصر يقودهم عبد الرحمن بن عديس البلوي..

ثم تطورت أحداث الثورة، حتى بلغت حد احتلال المدينة، ومحاصرة الخليفة في بيته، ثم تسوروا عليه منزله فقتلوه، يرحمه الله، وهو يقرأ القرآن!

فكانت تلك أول ثورة شهدها واقع المجتمع الاسلامي على عهد صدر الاسلام..

* * *

ثم ان الثوار لم يقفوا بعمليتهم الثورية عند قتل عثمان.. بل مضوا فاختاروا علي بن أبي طالب للخلافة، وبادر علي في اليوم التالي لبيعته فأعلن في أول خطبة له التغييرات الثورية التي ألغت ما طرأ على المجتمع الاسلامي في عهد عثمان:

١ ـ **ففي السياسة والادارة**: أعلن عزل عمال عثمان وولاته على الأمصار والأقاليم.

٢ ـ **وفي الاقتصاد الزراعي**: كانت هناك الأرض التي جعلها عمر ملكاً خالصاً لبيت المال، ثم جاء عثمان فأقطعها لأوليائه وأعوانه وولاته وأهل بيته.. فأعلن علي رد هذه الأرض الى ملكية الدولة وحوزة بيت المال، ورفض أن يعترف بالتغييرات التي حدثت فيها، وقال في ذلك كلماته الحاسمة: « والله لو وجدته ـ (أي المال) ـ قد تزوج به النساء، وملك به الإماء، لرددته.. فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق! ».

كما أعلن أن التمايز الطبقي الذي رفع من لا يستحق وخفض من لا يستحق قد حان الحين لتصفيته، فقال: والذي بعث محمداً بالحق انه «لا بد أن يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقن سابقون كانوا قصروا، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا»؟!(١).

٣ ـ **وفي ميدان العطاء**: أعاد نظام التسوية بين الناس، فنفذ بذلك عزم عمر الذي لم يتمكن من تنفيذه، وعاد بالأمر الى سنة النبي وأبي بكر.. وقال في هذا الصدد: «ألا لا يقولن رجال منك غداً، قد غمرتهم الدنيا، فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة؛ واتخذوا الوصائف الروقة ـ (الحسان) ـ فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، واذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم ـ (قيدتهم) ـ الى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا!.. فأنتم عباد الله، **المال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد!**».

ولما احتج نفر من الأشراف وبعض من الذين سبقوا الى الاسلام بأن عمر قد ميزهم في العطاء قال علي: «.. قديماً سبق الى الاسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضلهم رسول الله في القسم.. فالله لم يجعل الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً!»(٢).

وكان، بهذه التغييرات، يطبق ويضع في الواقع الاسلامي مطالب الثوار، ويقنن عملية التغيير الثوري.. كما كان يشرع لفلسفته الثورية في الأموال، تلك التي نظرت الى الأمة ككل متحد ومتكافل، والتي أودعها كلماته التي تقول: «ان الله سبحانه، فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير الا بما متع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك!»(٣).

---

(١) (نهج البلاغة) ص ٤١، ٤٢. طبعة دار الشعب، القاهرة.

(٢) (شرح نهج البلاغة) جـ ٧ ص ٣٧، ٤١، ٤٢.

(٣) (نهج البلاغة) ص ٤٠٨.

ثورة الخوارج المستمرة

استمر الفكر الاسلامي، طوال عهد الخلفاء الراشدين، على ولائه لمشروعية الثورة، وكان الخلاف فقط محصوراً في دائرة: وجود أسبابها؟ أو انعدام هذه الأسباب؟..

وعندما احتدم الصراع بين علي بن أبي طالب وبين خصومه، وخاصة بني أمية ومن خلفهم أشراف قريش وأهل الشام، وحدث التحكيم، ثم ظهرت ثماره، حدث في جبهة على ذلك الانشقاق الذي تولدت عنه فرقة الخوارج (المحكمة) التي أعلنت الثورة ضد كل من علي ومعاوية على السواء.. ولم ينكر عليهم أحد ثورتهم على معاوية، وانما كان الانكار منصباً على ثورتهم ضد علي.. لا لأن حق الثورة موضع انكار، وانما لأن مبرراتها موطن خلاف.. فالخوارج ثاروا على علي لأنه ضعف عن قتال فئة معاوية الباغية، وهو ـ لهذا الضعف ـ قد قبل تحكيم البشر في أمر قد حسمته نصوص القرآن ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ﴾[1].. أما علي فكان يرى أن مرجع الضعف ليس تردده هو، ولا شبهات حول بغي أهل الشام، وانما أنصاره، والأشراف منهم خاصة، كانوا هم مصدر الضعف..

(١) الحجرات: ٩.

فلقد كانت معه سيوفهم، وهي في أغمادها، بينما كانت مع معاوية قلوبهم وأهواؤهم ففعلت ما لم تفعله السيوف!

ونحن نستطيع أن نقول: انه اذا كانت الخوارج أول فرقة اسلامية منظمة ولدت في اطار مبدأ: مشروعية الثورة في الفكر الاسلامي، فإن الأسس النظرية التي استندت اليها هذه الفرقة، كي تبرر انشقاقها وثورتها قد تبلورت في المجتمع الاسلامي منذ الثورة على عثمان بن عفان، فلقد استخلص مفكرو التيارات الثورية المسلمة من أحداث تلك الثورة أن مشروعيتها تستدعي ظهور: الفسق، أو الجور، أو الضعف على الامام صاحب السلطة العليا في البلاد.. والثوار قد اتهموا عثمان بالضعف والجور، فكانت مشروعية ثورتهم، حتى لقد حماهم علي بن أبي طالب عندما طلب القصاص منهم معاوية بن أبي سفيان.. وكذلك الخوارج ثاروا، ورأوا أن ثورتهم مشروعة، لأنها موجهة ضد امام ضعف عن قتال البغاة، وضد البغاة الذين جمعوا الى البغي الفسق والجور!

ولقد ظلت هذه الفرقة تحمل علم الثورة المستمرة لعدة قرون.. وكانوا في كل ثوراتهم وهباتهم وانتفاضاتهم أوفياء للمبادىء الأساسية التي جمعتهم رغم ما طرأ على حركتهم من انقسامات.. فهم:

١ ـ مع امامة الامام الصالح.. بصرف النظر عن النسب والجنس واللون.

٢ ـ وهم مع الاختيار والبيعة سبيلاً لتنصيب الامام، وضد فكر الشيعة في الوصية والنص عليه من السماء..

٣ ـ وهم يرون أن الامامة ـ (الخلافة ونظام الحكم) ـ من الفروع، وليست من أصول الدين، فمصدرها ليس الكتاب ولا السنة، بل « الرأي »..

٤ ـ وهم يقولون بالعدل والتوحيد، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. .

٥ ـ ورأيهم أن مرتكبي الذنوب الكبائر ـ وكان المثال المطروح: حكام بني أمية وعمالهم ـ هم كافرون مخلدون في النار. .

٦ ـ وهم، في تقويم التاريخ، مع امامة أبي بكر وعمر، ومع امامة عثمان قبل أن يحدث الأحداث التي نشأت في سنوات حكمه الست الأخيرة، ومع امامة علي بن أبي طالب قبل التحكيم. .

٧ ـ وهم مع الثورة المستمرة والخروج الدائم وتجريد السيف ضد أئمة الجور. فعندهم أن الخروج ـ (الثورة المسلحة) ـ يجب اذا بلغ عدد المنكرين على أئمة الجور أربعين رجلاً، وهذا ـ عندهم ـ هو حد (الشراة) ـ الذين اشتروا الجنة عندما باعوا أرواحهم ـ وعليهم الخروج «حتى يموتوا أو يظهر دين الله ويخمد الكفر والجور». . ولا يحل لهم المقام غير ثائرين الا اذا نقص عددهم عن ثلاثة رجال. . فإن نقصوا عن الثلاثة قعدوا، وكتموا عقيدتهم، وكانوا على مسلك (الكتمان). . فلقد جعلوا المسالك عندهم أربعة وهي ـ بعد (الشراء) و (الكتمان) ـ: (الظهور) عند قيام دولتهم ونظامهم تحت قيادة امام الظهور. . و (الدفاع) وهو التصدي لهجوم الأعداء تحت قيادة إمام الدفاع[1]. . وهم متفقون على وجوب «ازالة أئمة الجور، ومنعهم أن يكونوا أئمة، بأي شيء قدروا عليه، السيف أو بغير السيف. .»[2].

٨ ـ وهم أخيراً قد جمعتهم تقاليد اشتهرت عنهم في الحرب والثورة

(١) أبو حفص عمر بن جميع (مقدمة التوحيد وشروحها) ص ٥٠ ـ ٥٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ.

(٢) الأشعري (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ٢٠٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م.

والقتال.. فالزهد الذي تحلوا به قد حررهم من قيود الحرص على الاقتناء وأعانهم على الانخراط في الثورات والرحيل في ركاب الجيوش الثائرة.. والنسك والتقوى اعترف بهما لهم حتى خصومهم من كتاب السير والتاريخ والمقالات.. والصدق والشجاعة طبعا نفوسهم فبرزت آثارهما في الشعر الذي قالوه حتى لقد تميز عن شعر الآخرين..

ولقد تصاعدت ثورات الخوارج، واستمرت، منذ حربهم لعلي بن أبي طالب سنة ٣٨ هـ بالنهروان، حتى تحولت الى تحرك جماهيري مسلح ضد بني أمية أسهم اسهاماً كبيراً في اضعاف دولتهم، الأمر الذي أتاح للجند الخراساني أن يقطف ثمارها لبني العباس.. ففي سنة ١٢٧ هـ قاد الثائر الخارجي الضحاك بن قيس الشيباني جيشاً ضم مائة وعشرين ألفاً من المقاتلين، بينهم نساء كثيرات محاربات! وأحرز به عدة انتصارات ضد الأمويين.. بل ان حياة هذه الفرقة الاسلامية كانت ثورة مستمرة على الدولة وعمالها، سواء في ذلك عهد علي بن أبي طالب أو بني أمية أو بني العباس.

ففي خلال هذه الفترة شهدت عديد من المدن والأقاليم ثورات وتمردات وانتفاضات أشعلها الخوارج، وقادها أمراء عقدت لهم البيعة منهم بامرة المؤمنين، أو قادة مقاتلون نابوا عن هؤلاء الأمراء.. حدث ذلك:

* في « الدسكرة » بقيادة أشرس بن عوف الشيباني.. في ربيع الثاني سنة ٣٨ هـ..

* وفي « ماسبذان » بقيادة هلال بن علفة، وأخيه مجالد.. في جمادى الأولى سنة ٣٨ هـ..

* وفي « جرجرايا » ـ على نهر دجلة، بقيادة الأشهب بن بشر البجلي.. في سنة ٣٨ هـ..

* وعلى مشارف الكوفة، بقيادة أبي مريم ـ من بني سعد تميم.. في

رمضان سنة ٣٨ هـ . .

* وقرب البصرة، بقيادة سهم بن غالب التميمي والخطيم الباهلي . . في سنة ٤١ هـ . .

* وفي الكوفة، بقيادة المستورد بن علفة . . في أول شعبان سنة ٤٣ هـ . .

* وفي البصرة، بقيادة قريب الأزدي . . في سنة ٥٠ هـ . .

* وفي مضارب قبيلة بني عبد القيس . . في سنة ٥٨ هـ . .

* وعند « بانقيا » ـ قرب الكوفة، بقيادة حيان بن ظبيان السلمي . . في سنة ٥٩ هـ . .

* وفي الأهواز، بقيادة أبي بلال مرداس بن أدية . . في سنة ٦١ هـ . .

* وفي البصرة، بقيادة عروة بن أدية . . ثم بقيادة عبيدة بن هلال . .

* وفي البصرة والأهواز، بقيادة نافع بن الأزرق . . في سنة ٦٤ هـ . .

* وفي اليمامة، بقيادة أبي طالوت . . في سنة ٦٥ هـ . .

* وفي شرقي نهر دجيل . . في شوال سنة ٦٦ هـ . .

* وفي اليمن وحضرموت والبحرين، بقيادة نجدة بن عامر . . في سنة ٦٧ هـ . .

* وعند سابور واصطخر، ثم البصرة، بقيادة الزبير بن علي السليطي . . في أوائل سنة ٦٨ هـ . .

* وفي الكوفة . . في أواخر سنة ٦٨ هـ . .

* وفي نواحي أصفهان . . في سنة ٦٩ هـ . .

* وفي الأهواز، سقيادة قطري بن الفجاءة ـ في سنة ٦٩ هـ . .

* وقرب فارس . . في آخر شعبان سنة ٧٥ هـ . .

* وفي « دارا » و « المديح »، بقيادة صالح بن مسرح . . في صفر سنة ٧٦ هـ . .

* وفي العراق، بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم. . في سنة ٧٦ هـ ثم في سنة ٧٧ هـ. .

* وفي الكوفة، بقيادة شوذب، في عهد يزيد الثاني. .

* وفي الموصل، بقيادة بهلول بن بشر. . في عهد هشام الثاني. .

* وعند «مناذر» - بنواحي خوزستان -، بقيادة الصحاري بن شبيب. . في عهد هشام الثاني. .

* وفي الكوفة، بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني. . في رجب سنة ١٢٧ هـ. .

* وفي واسط، بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني. . في شعبان سنة ١٢٧ هـ. .

* وفي اليمن، بقيادة عبد الله بن يحي الكندي. . في سنة ١٢٩ هـ. .

* وفي مكة، وفي المدينة، بقيادة حمزة الشاري. . في سنة ١٣٠ هـ. .

وهكذا استمرت ثوراتهم وانتفاضاتهم وتمرداتهم. . خفية اذا نقص عدد الثوار عن ثلاثة. . وواجبة الاعلان اذا بلغوا حد الأربعين! . .[1].

(١) فلهوزن (الخوارج والشيعة) ص ٣٩ وما بعدها. ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م.

ثورات المرجئة

صحيح أن « المرجئة » تيار في الفكر الاسلامي نشأ على عهد بني أمية، وأن المنطلق الفكري، والفكـرة المحوريـة التي تبلور من حولها هذا التيـار كانت الفصل أو التمييز بين « الايمـان » وبين « العمـل »، فصحة الايمـان ومقداره لا يتأثران ـ عندهم ـ بعمل المؤمن. . فالايمان تصديق بالقلب، ولا تضر معه معصية، كما أنه لا تنفع مع الكفر طاعة. .

وصحيح أيضاً أن هذا التيار الفكري قد نشأ ليناقض مـوقف الخوارج من الحكم بكفر مرتكبي الكبائر، فكلا التيارين قد أمسك في هذه القضية بـالطرف الأقصى من حبـل الخلاف، أحـدهما يغـالي في الربط بـين الايمان القلبي والعمل الظاهر، وثانيهما يحل ما بينهما من رباط. .

وصحيح كذلك أن تيار «الإرجاء» هذا قد لعب دوراً في التبرير لمظالم بني أمية، وغيرهم من أمراء الجور وولاة الفساد. .

ولكن الأمـر الـذي غفلت عنـه ـ حسب علمنـا ومعلومـاتنـا ـ كـل الدراسات التي عرضت لقضية المرجئة والإرجاء، هو أن الارجاء في الفكر والتاريخ الاسلامي لم يكن ـ في السياسة ـ تياراً واحداً، فالى جانب المرجئة

الذين برروا مظالم بني أمية، ووظفوا فكرة الفضل بين الايمـان والعمل في خدمة الحكام كان هناك مرجئة ثوار، اتخذوا من الإرجاء وأصوله الفكرية أسلحة يدافعون بها عن العامة، وبالذات عن الـذين انخرطـوا في سلك الدين الجديد من أبناء البلاد المفتوحة شرقي العراق . .

ففي البلاد التي فتحها المسلمون استمر الأمويون يجمعون الجزية حتى ممن أسلم من أهل تلك البلاد،حتى جاء عمر بن عبدالعزيز(٦١ ـ ١٠١هـ ٦٨١ ـ ٧٢٠ م) فأوقف ذلك الجور، وأعلن أن الله انما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً! . . وبعد عهـد عمر بن عبـد العزيـز اشتكى الولاة وجباة الأموال من قلة المال المجموع بسبب اسقاط الجزية عن الـذين أسلموا من الترك وغيرهم، خاصة في خراسان وما حولها، .وزعموا أن الناس قد دخلت في دين الله أفواجاً هرباً من الجزية، وأثـاروا الشكوك حـول صدق عقـائد هؤلاء المسلمين الجددا . . فـوضعت الدولـة الأمويـة بعـد سنـة ١١٠ هـ « مواصفات » للاسلام حتى تعترف به الدولة وتقر لصاحبه بالتدين بالدين الحنيف! ومن هذه « المواصفات » والشروط:

١ ـ الاختتان. (والذين كانوا يسلمون لم يكونوا أطفالاً ولا صبية، حتى يسهل عليهم الاختتان!).

٢ ـ واقامة الفرائض. . (والاقامـة تتطلب مستـوى أرفع من مستـوى الأداء!).

٣ ـ وحسن الاسلام. . (وهو شرط غير محدد، يستطيع الوالي أو جابي الضرائب أن يثبت عكسه اذا شاء!).

٤ ـ وقراءة سورة من القرآن. . . (والقوم لم يكونوا عرباً حتى يتحدثوا العربية، فضلاً عن أن يقرأوا القرآن).

وبعد ذلك كتب عامل الخراج في خراسان الى واليها « أشرس » سائلاً:

« ماذا تصنع، والناس قدأسلموا وبنوا المساجد؟! . . » فأجابه الوالي قائلاً: « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه »!.

وهنا انفجرت احدى الثورات الاسلامية ضد حكم الأمويين. . ففي اقليم « السغد » خرج سبعة آلاف من الذين أسلموا حديثاً، وعسكروا على سبعة فراسخ من « سمرقند »، وانضم اليهم كوكبة من « القراء والفقهاء » الذين رأوا ضرورة الاعتراف باسلام هؤلاء الذين شهدوا أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله، وضرورة الغاء تلك « المواصفات » والشروط التي تربط صحة الايمان بصحة أعمال قد يعجز عنها هؤلاء الذين دخلوا حديثاً في الاسلام. . فهم هنا يدعون الى الاعتراف باسلام من أسلم وأعلن اسلامه، والى ارجاء الحكم على صدق عقيدته الى الله سبحانه، فهو وحده صاحب السلطان على الضمائر والقلوب. . أي أنهم يوظفون فكرة الارجاء لخدمة الجماهير، كما وظفها سواهم من قبل لخدمة الأمراء والحكام. .

وكان من بين « القراء والفقهاء » الذين شاركوا في هذه الثورة: أبو الصيداء صالح بن طريف، وربيع بن عمران التميمي، والقاسم الشيباني، وأبو فاطمة الأزدي، وبشر بن جرموز الضبي، وخالد بن عبد الله النحوي، وبشر بن زنبور الأزدي، وعامر بن بشير ـ أو قشير. الخجندي، وبيان العنبري، واسماعيل بن عقبة، وثابت قطنة، صاحب القصيدة الشهيرة التي سجل فيها فكر المرجئة عن الإرجاء. .

ولقد تكررت للمرجئة ثورة ثانية في بخارى، احتموا أثناءها بالمسجد الجامع يصيحون بأعلى أصواتهم: « أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله! »، ولكن الولاة لم يصححوا اسلامهم، بل شنقوا منهم أربعمائة!

وفي البصرة تكررت المأساة عندما أمر الولاة باجلاء الموالي عنها، فخرجوا وعسكروا في العراء يبكون وينادون: يا محمداه! يا محمداه! . . وخرج الى معسكرهم قراء البصرة يبكون معهم وينتصرون لهم!

ولقد أثمرت تلك الثورات الفاشلة التي أشعلها المرجئة شحنات من الغضب دفعت عظيم قبيلة الأزد الحارث بن سريج الى الثورة والخروج على هشام بن عبد الملك سنة ١١٦ هـ، وكان الرجل الثاني في هذه الثورة هو الجهم بن صفوان، وهو من أبرز مفكري الجبر والارجاء في الفكر الاسلامي على الاطلاق[١]. .

(١) أنظر (تاريخ الطبري) جـ ٨ ص ٣٥، ١٩٦، ١٩٧. و (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) لفان فلوتن ص ٥٣ ـ ٥٥، ٦٥، ٦٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م. وجمال الدين القاسمي (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٧ ـ ٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.

ثورات الشيعة

عندما تبلور الفكر النظري للشيعة على عهد امامها جعفر الصادق (٨٠ ـ ١٤٨ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٥ م) ومهندس نظريتها في الامامة هشام بن الحكم (١٩٠ هـ ٨٠٥ م)، أصبحت حزباً سياسياً منظماً، ولكن بطش بني أمية الذي بلغ قمة التنكيل بآل البيت في كربلاء قد جعل شيعة جعفر الصادق تصطبغ بالصبغة الدينية، وتعلق الفرج والخلاص على السماء، وتنهى عن اتخاذ الثورة طريقاً للتغيير، وتضرب للمريدين أمثلة الثورات الفاشلة وما جرت على محبي آل البيت من آلام. . ولكن هذا التيار اللاثوري لم يكن كل الشيعة، بل لقد عرف تاريخ الشيعة والتشيع العديد من الفرق الثائرة والكثير من الثورات. . وذلك مثل:

١ ـ الكيسانية: وهم تيار الشيعة الذي قال بامامة محمد بن علي بن أبي طالب (المعروف بمحمد بن الحنفية). . وكانت ثورتهم في الكوفة بقيادة المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي (١ ـ ٦٧ هـ ٦٢٢ ـ ٦٨٧ م)، وهي ثورة استهدفت أولاً الانتقام لمقتل الحسين في كربلاء، والقصاص من محاربيه وقاتليه، ولقد أحرزت هذه الثورة التي استمرت سلطتها في الكوفة ستة عشر

شهراً، نجاحاً ملحوظاً في تحقيق ما قامت لتحققه من أهداف[١] . .

٢ ـ الاسماعيلية: وهي الفرقة التي تكونت بانشقاق حدث على الشيعة الاثنى عشرية، عندما قرر فريق منهم أن الامامة بعد جعفر الصادق هي لابنه اسماعيل ذي الصلات الوثيقة بالأوساط المتطرفة والثورية[٢]، وليست لموسى الكاظم الذي سار على نهج جعفر الصادق في العزوف عن الثورة كطريق للتغيير . .

ولقد لعبت الشيعة الاسماعيلية هذه دوراً متعاظماً في مجال الحركات السرية والباطنية، ففي المجال الفكري خلطوا الفكر الاسلامي بأطراف من المواريث الفلسفية للأمم الأخرى، وفي المجال الاجتماعي تصدوا بالثورة لامتيازات الأرستقراطية الحاكمة وأصحاب الامتيازات، وضمت صفوف هذه الفرقة كلاً من العرب والموالي على السواء . . ولقد تفرعت منها، واتصلت بها، دول وثورات وجمعيات وقيادات، منها الثورة الفاطمية ودولتها . . وجماعة اخوان الصفاء وخلان الوفاء . . وكذلك القرامطة .

٣ ـ القرامطة: وهم الذين ظلوا يمثلون الجناح المتطرف، أو اليساري، في الشيعة الاسماعيلية وتميزوا بذلك بعدما أصبح للفاطميين دولة فرضت عليها رعيتها وظروف السلطة فيها الانتقال من مواقع الثوار الى مصاف الحكام!

ولقد قامت للقرامطة دولة باليمن وما جاورها في العقد الأول من القرن العاشر الميلادي، وهاجمت جيوشهم أجزاء عديدة من الشام والعراق، وحاولوا غزو مصر عدة مرات عندما حكمها الفاطميون . .

---

(١) النوبختي (فرق الشيعة) ص ٢٠ تحقيق ريتر. طبعة استانبول سنة ١٩٣١ م .

(٢) برنارد لويس (أصول الاسماعيلية) ص ١١١ ط. القاهرة (دار الكتاب العربي. دون تاريخ) .

والذين أرخوا لفكرهم وثورتهم يختلفون في الوصف والتقويم للنظام الاجتماعي الذي أقاموه.. فهم يتفقون ـ والقول للامام الغزالي ـ على أن مبادئهم قد استهوت «الطبقات العاملة وأهل الصناعات والحرف!».. ولكن البعض ينسب اليهم التحلل من تكاليف الشرع وفرائض الدين، فمنهم من يقول انهم رفضوا الصلاة ما داموا فقراء لا يملكون، وأوردوا للدلالة على ذلك شعراً:

تلوم على ترك الصلاة حليلتي ... فقلت اغربي عن ناظري أنت طالق
فوالله لا صليت لله مفلساً ... يصلي له الشيخ الجليل وفائق
لماذا أصلي؟ أين مالي ومنزلي ... وأين خيولي والحلى والمناطق؟!
أصلي ولا فتر من الأرض يحتوي ... عليه يميني انني لمنافق!
بلى. ان عليّ الله وسع لم أزل ... أصلي له ما لاح في الجو بارق!

والبعض يقول: انهم كانوا يكثرون من الصلاة، تعبداً في رأي فريق، وسبيلاً لشغل أوقات عملهم في أرض كبار الملاك بالصلاة بدلاً من خدمة أرض هؤلاء الملاك! أي نوعاً من الاضراب عن العمل بواسطة الخمسين صلاة التي فرضها زعيمهم على القرامطة الفلاحين؟!..

ولكن خصومهم وأنصارهم يتفقون على أنهم قد أقاموا نظاماً جماعياً أصبحت فيه ثروة المجتمع ملكاً لمجموع أبنائه العاملين، وهم قد تدرجوا في الوصول الى هذا الهدف حتى حققوه.. ووقفت الملكية الخاصة عند السلاح.. وشاركت المرأة في العمل والانتاج.. وكان نظامهم السياسي أقرب للجمهورية، يساعد رئيسها مجلس (العقدانية) أي أهل الحل والعقد.. وفي مجتمع القرامطة امتنع الربا والخمر[1].. وظل لمذهبهم الثوري أتباع، حتى بعد زوال دولتهم، الى أن قضى عليهم أحد أئمة اليمن (ابن حميد الدين) واستولى على ما كان في حوزتهم من مخطوطات.

(١) المرجع السابق. ص ١٩٢، ٢٠١ ـ ٢٠٥.

ثورات المعتزلة

منذ النشأة الأولى لمدرسة المعتزلة في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وحتى قبل اطلاق اسم (المعتزلة) عليهم - وكانوا يسمون قبل الانشقاق عن جماعة الحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ، ٦٤٢ - ٧٢٨ م) بأهل العدل والتوحيد - كانت معارضة السلطة الأموية احدى المهام البارزة في بنائهم الفكري ونشاطهم العملي. .

ففي تقويمهم لأحداث التاريخ الاسلامي - وطلائع أئمتهم كانوا مؤرخين ورواة - أدانوا التحول الذي أحدثه الأمويون ونقلوا به نظام الحكم من خلافة شوروية الى ملك عضود، ومن ثم كانت الدولة الأموية، في مذهبهم، دولة « متغلبة » على سلطة المسلمين ومغتصبة لسلطانها. فأمراؤها « بغاة » يجب قتالهم حتى يفيئوا الى أمر الله، وباستثناء عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فانهم « خلفاء » غير شرعيين، وحتى عمر بن عبد العزيز فإن المعتزلة قد اعترفوا بخلافته لأنه اكتسب شرعيتها بعدله، وان كان قد تولاها بعهد أسلافه الظالمين المغتصبين. . وكما يقول امام المعتزلة عمرو بن عبيد: لقد « أخذ عمر بن عبد العزيز الخلافة بغير حقها، ولا استحقاق لها، ثم استحقها بالعدل حين أخذها »[1].

(١) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ١٥٢.

والمعتزلة، كذلك، قد أدانوا فكر «الجبر والإرجاء»، الذي استندت اليه الدولة الأموية، عندما جعلوا العدل ـ الذي يعني الاختيار والحرية والمسؤولية ـ أصلاً من أصولهم الفكرية، وعندما ربطوا بين الايمان والعمل، على نحو معتدل لا يصل الى افراط الخوارج ولا الى تفريط المرجئة. .

ثم هم ـ وهذا هو المصداق العملي لأصالة فكرهم الثوري ـ قد شاركوا بالتأييد والاسهام في النشاط الثوري الذي تفجر ضد الأمويين وضد العباسيين في سبيل العدل والعودة الى الشورى كفلسفة للحكم والخلافة كنظام اسلامي أصيل في حكم مجتمع المسلمين. .

مع ابن الأشعث:

ففي ثورة عبد الرحمن بن الأشعث (٨٥ هـ ٧٠٤ م) ضد الحجاج بن يوسف وخليفته عبد الملك بن مروان، شارك أهل العدل والتوحيد في العمل المصلح، وذكرت لنا مصادر التاريخ وكتب المقالات أسماء عديد من قادتهم الذين شاركوا في القتال ابان تلك الثورة، من مثل: معبد الجهني، والجعد ابن درهم، وسعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري[1] ـ وغيرهم.

ومع الحارث بن سريج:

وأسهموا في الثورة التي قادها عظيم الأزد الحارث بن سريج ضد حكم هشام بن عبد الملك سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) وكانت مطالب هذه الثورة:

١ ـ العودة بنظام الخلافة الى فلسفة الشورى والاختيار والبيعة الحرة. .

(١) القاضي عبد الجبار (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٢٠ طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م و (تاريخ الطبري جـ ٨ ص ١٥١، ١٥٢ (حوادث سنة ١٠٢ هـ)، و (تاريخ الجهمية والمعتزلة) ص ٥٥.

٢ ـ وتغيير العمال على الأقاليم والأمصار. .
٣ ـ وعزل رجال الشرطة.
٤ ـ واشراك الناس في اختيار الولاة على الأقاليم. .

* * *

بقيادة زيد بن علي:

على أن أولى الثورات التي شبت ضد حكم بني أمية بقيادة المعتزلة كانت تلك التي قادها زيد بن علي (٧٩ ـ ١٢٢ هـ ٦٩٨ ـ ٧٤٠ م) بالكوفة ضد هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ.

والبعض يظن أن هذه الثورة «زيدية» ـ نسبة الى الشيعة الزيدية ـ وليست ثورة معتزلية ـ لأن زيد بن علي قد أصبح فيما بعد رأس الشيعة الزيدية وامام فرقتهم الأول. . ولكن هذا الظن لا أساس له من صدق التأريخ. . فلم تكن هناك فرقة زيدية يوم حدثت هذه الثورة، ولم يكن زيد ابن علي سوى واحد من شباب آل البيت اعتنق مع نفر من أترابه العلويين مذهب المعتزلة، لطابعه الثوري واتجاهه المناهض، بالثورة، لحكم بني أمية، في صورة انشقاق حدث في صفوف الشيعة الامامية عندما ناهض زعيمها جعفر الصادق اتجاه الثورة كسبيل للتغيير. .

فلقد كان جعفر الصادق يحذر شباب آل البيت النازع الى الثورة، ويقول لهم: «ان بني أمية يتطاولون على الناس، حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها وهم يستشعرون بغض أهل البيت، **ولا يجوز أن يخرج ـ (يثور) ـ واحد من أهل البيت حتى يأذن الله بزوال ملكهم!**»[1].

ولكن هذا النفر الثائر من شباب آل البيت دخل في الاعتزال،

(١) الشهرستاني (الملل والنحل) جـ ٢ ص ٨٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ.

واستقبلوا واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١ هـ ٧٠٠ ـ ٧٤٨ م) رأس المعتزلة، وعقدوا معه مؤتمراً بالمدينة دارت فيه مساجلات ومناظرات واتهامات بين جعفر الصادق وكل من واصل بن عطاء وزيد بن علي. . :

جعفر: « انك، يا واصل، أتيت بأمر تفرق به الكلمة، وتطعن به على الأئمة! ».

واصل: « انك، يا جعفر، وأنّى الهمة، شغلك همّ الدنيا، فأصبحت به كلفاً، وما أتيناك الا بدين محمد. . فإن تقبل الحق تسعد به، وان تصدف عنه تبوء باثمك! ».

زيد بن علي: لجعفر ـ « انه ما منعك من اتباع واصل الا الحسد لنا »[1].

فزيد بن علي: الجماعة، والفكر، والثورة: معتزلة، وكما يقول الشهرستاني: فإن زيد بن علي قد «اقتبس الاعتزال من واصل بن عطاء، وصارت أصحابه كأنها معتزلة »[2]. . بل لقد ظلت الزيدية، حتى بعد تبلورها كفرقة معتزلية فيما يتعلق بالأصول. وبعبارة الشهرستاني ، أيضاً، فانهم «في الأصول يرون رأي المعتزلة حذو القذة القذة[3]، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت»[4] من الشيعة الامامية!.

ذلك الى اعتراف المعتزلة بامامة زيد السياسية القائمة على البيعة التي عقدت له عندما فجر ثورته، الأمر الذي يؤكد العلاقة العضوية الكاملة بين هذه الثورة وبين الاعتزال. . فالقاضي عبد الجبار يتحدث عن ذلك فيقول:

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٥، وابن المرتضى (باب ذكر المعتزلة ـ من كتاب المنية والأمل) ص ٢٠، ٢١ طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ.

(٢) (الملل والنحل) جـ ٢ ص ٨٣.

(٣) القذة: ريشة السهم.

(٤) (الملل والنحل) جـ ١ ص ١٦٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م.

ان زيد بن علي « كان صالحاً للامامة لما أوتيه من الصلاح والعلم والفضل، ولأنه قد بايعه فريق من أهل العلم والفضل، فيجب أن يكون اماماً »[١].

ونحن نستشف من نص البيعة التي بايع بها الثوار قائدهم أهم أسباب هذه الثورة فهي:

١ ـ تستهدف التصدي للظلم وجهاد الظالمين.
٢ ـ والدفاع عن المستضعفين المظلومين.
٣ ـ وتوزيع الأموال بالعدل والمساواة بين المستحقين لها.
٤ ـ واغلاق المعسكرات التي حشد الأمويون فيها الرجال بدعوى الفتح والغزو، بينما كان الهدف الحقيقي فتح جبهات خارجية تصرف الناس عن الوضع المتردي في البلاد!

٥ ـ والانتصار لآل البيت الذين بلغ التنكيل بهم على يد الأمويين حد المأساة.

ذلك أن نص بيعة زيد كان يقول: « انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه، ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، واعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، ورد الظالمين، واقفال المجمر ـ (معسكرات الثغور في أطراف البلاد) ـ ونصرة أهل البيت على من نصب لهم وجهل حقهم »[٢].

ويشهد لانبعاث هذه الثورة من فكر يؤمن بالقوة والعنف الثوري طريقاً للتغيير قول قائدها: « انه لو لم أكن الا أنا وابني لخرجت ـ (ثرت) ـ على هشام.. فليس الامام منا من أرخى عليه ستره ـ (تعريض الاتجاهات غير الثورية) ـ وانما الإمام من شهر سيفه[٣]! ».

---

(١) (المغني) جـ ٢٠ ق ٢ ص ١٤٩.

(٢) (تاريخ الطبري) جـ ٧ ص ١٧٢ (أحداث سنة ١٢١ هـ).

(٣) ناجي حسن (ثورة زيد بن علي) ص ١٠٤، ١٤١ طبعة بغداد سنة ١٩٦٦ م.

ولقد استطاع الأمويون أن يصرفوا عن نصرة زيد الأشراف والملاك والأغنياء عندما هددوهم بمصادرة أموالهم ان هم استمروا على بيعتهم لزيد والثورة معه، فلم يبق مع الثورة سوى الفقراء الذين لا يخشون المصادرات! والذين لا يجدون مصلحتهم في غير الثورة، وهم الذين تحدث عنهم هشام ابن عبد الملك في أمره الى والي الكوفة يوسف بن عمر: انه اذا تخلى الأشراف عن زيد، فلن يواصل الثورة معه سوى « الرعاع، وأهل السرد ـ (الفلاحين) ـ ومن تنهضه الحاجة! »[1].

ولكن نجاح خطة الأمويين لم يفت في عضد الثوار، فقاد زيد رجاله وقاتل جيش بني أمية بشجاعة الأئمة وعزم الثوار، وكان ينشد، وهو مقبل على الاستشهاد، قول الشاعر:

أذل الحياة وعز الممات ... وكلا أراه طعاماً نبيلاً
فإن كان لابد من واحد ... فسيروا الى الموت سيراً جميلاً[2]!

فقاتل مع رجاله، من المعتزلة وأنصارهم، حتى قتل وقتل أغلبهم فدفنه أصحابه سراً، ثم اكتشف الأمويون مدفنه، فنبشوه، وصلبوه، واحتزوا رأسه فبعثوا به الى هشام بن عبد الملك، فنصبه على باب دمشق، ثم طيف به في المدن الكبرى، كالمدينة ومصر، زجراً للثوار. وبعد ذلك أحرقت جثة زيد وألقي برمادها في نهر دجلة!.

* * *

بقيادة يزيد بن الوليد:

وثورة ثانية كانت قيادتها للمعتزلة، كما كان الاعداد لها تحت قيادتهم

(١) (تاريخ الطبري) جـ٧ ص ١٧٢ (أحداث سنة ١٢١ هـ).
(٢) ابن قتيبة (عيون الأخبار) مجلد ١ ص ١٩١ طبعة القاهرة سنة ١٩٧ م.

وباشرافهم. . وهي أولى الثورات التي تفجرت ضد بني أمية في عاصمتهم دمشق ومعقل سلطانهم التقليدي بين أهل الشام. .

ولقد قاد هذه الثورة وتولى الخلافة بواسطتها الامام المعتزلي يزيد بن الوليد (٨٦ ـ ١٢٦ هـ ٧٠٥ ـ ٧٤٤ م)، وهو من أمراء بني أمية الذين اعتنقوا مذهب الاعتزال، ولقد انتهت أحداثها بمقتل الخليفة الأموي الفاسق الماجن الوليد بن يزيد (٨٨ ـ ١٢٦ هـ ٧٠٧ ـ ٧٤٤ م)، بعد أن حاصرته في قصره القوات الثائرة التي زحفت على دمشق من المناطق المحيطة بها، وبعد البيعة ليزيد بن الوليد أعلن في الناس العودة الى الخلافة الشوروية، وحق الناس في خلع الامام، وفي العهد بالامامة للأصلح لها، كما أعلن العدل بين الناس، مسلمين وغير مسلمين « حتى يكون أقصاهم كأدناهم، وحتى تستدر المعيشة بين المسلمين »!

ولقد استمرت هذه الثورة ـ بعد نجاحها ـ حتى وفاة خليفتها يزيد بن الوليد، عندما انقض عليها المتربصون بها من أمراء بني أمية، بقيادة مروان ابن محمد (آخر الخلفاء الأمويين). .

ولم تكن القيادة فقط في هذه الثورة للمعتزلة، بل كان ثوارها ومقاتلوها معتزلة أو تحت قيادة المعتزلة ومن المواطن والبلاد التي غلب فيها فكر أهل الاعتزال. . بل لقد تجهز معتزلة العراق لنصرة هذه الثورة بالشام، فقال عمرو بن عبيد لأصحابه في البصرة « تهيأوا حتى نخرج الى هذا الرجل فنعينه على أمره »[1].

ولقد أفاض المؤخرون في الحديث عن الصلة العضوية بين هذه الثورة وتنظيم المعتزلة وكما يقول المسعودي: فلقد « كان خروج ـ (ثورة) ـ يزيد بن الوليد، بدمشق، مع شائعة ـ (جمهور) ـ من المعتزلة وغيرهم. . على الوليد

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١١٣.

ابن يزيد، لما ظهر من فسقه، وشمل الناس من جوره.. والمعتزلة تفضل ـ في الديانة، يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز.. وكان يزيد يذهب الى قول المعتزلة وما يذهبون اليه في الأصول الخمسة[1] »..

ولقد كان تقدير المعتزلة ليزيد بن الوليد ولامامته تقديراً عظيماً.. فهو الوحيد من خلفاء بني أمية الذي تولى الخلافة بالبيعة والشورى، لا بالتغلب والقهر أو الميراث.. ومن هنا فضلوه حتى على عمر بن عبد العزيز.. وهو قد انقص مخصصات بني أمية وأعطيات جيش الشام الأموي الذي كانت له الامتيازات منذ تأسيس الدولة الأموية، ومن هنا سمي الناقص!.. وهو قد سار في الناس سيرة عادلة حتى لقد تحدث عنه امام المعتزلة الزاهد عمرو بن عبيد فوصفه بأنه: « الكامل!.. عمل بالعدل، وبدأ بنفسه، وقتل ابن عمه في طاعة الله، وصار نكالاً على أهل بيته، ونقص من أعطياتهم ما أرادته الجبابرة، وجعل في عهده ـ (بيعته) ـ شرطاً ـ (أي علق استمرارها على عدله وصلاحه) ـ ولم يجعله حازماً[2] »..

واذا كان هذا هو وصف المعتزلة لعدل امامهم هذا وقائد ثورتهم هذه، فإن نصيب جثمانه ـ بعد نبش قبره ـ قد كان: الصلب والتشويه بعد أن ولي الأمر مروان بن محمد.. ولكن ذلك لم يمنع المؤرخين ـ حتى غير المعتزلة ـ من حكاية القصص عن عدله وصلاحه وتقواه، فابن قتيبة يقول ان يزيد بن الوليد « كان محمود السيرة، مرضياً.. وقال انه مذكور في الكتب المتقدمة بحسن السيرة والعدل، وفي بعضها: يا مبدد الكنوز، يا سجاداً بالأسحار، كانت ولايتك رحمة، ووفاتك فتنة، أخذوك فصلبوك! »[3].

---

(١) (مروج الذهب) جـ ٢. ص ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧.

(٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١١٣.

(٣) (المعارف) ص ٣٦٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

أما علماء النحو فقرنوا يزيد بن الوليد بعمر بن عبد العزيز ـ (الأشج) ـ واتخذوا منهما مثالاً في دراساتهم النحوية فقالوا: « الناقص والأشج أعدلا بني مروان! »[١].

* * *

بقيادة النفس الزكية:

وعندما اضطرب أمر الدولة الأموية سعى المعتزلة لطرح قضية الخلافة على ممثلي الأمة الاسلامية، لاختيار خليفة يتولى أمرها بالبيعة والشورى، حتى تعود الخلافة الى سيرتها الأولى بعد أن استبدلها الأمويون بملكهم الوراثي العضود ـ ورغم رفض الشيعة الامامية لسعي المعتزلة هذا ـ لأنهم يرون الحكم شأناً من شؤون السماء، تختار له من يتولاه، ولا شأن للبشر به ـ فلقد أفلح المعتزلة في جمع نفر كبير من أهل الحل والعقد بايعوا لامام معتزلي من ثوار أهل البيت الذين قاتلوا في ثورات المعتزلة السابقة هو محمد بن عبد الله بن الحسن، المعروف بالنفس الزكية (٩٣ ـ ١٤٥ هـ ٧١٢ ـ ٧٦٢ م) فعقدت له البيعة بمكة[٢]. .

ولكن التيار الشعوبي في حركة الثورة ضد بني أمية، والذي يقوده ابن مسلم الخراساني استطاع التغلب على التيار العربي، فنقل السلطة من ملك بني أمية الى ملك بني العباس، وذلك عندما دبر أبو مسلم قتل القائد العربي أبي سلمة حفص بن سليمان الهمداني الخلال الذي كان يشارك أبا مسلم في قيادة الثورة. . فلقد كان هوى أبي سلمة مع العرب والخلافة الشوروية، بينما كان أبو مسلم يتحرك بأحقاد شعوبية ومواريث فكرية تنزع الى وراثة الملك كما كان الأمر عند الفارسيين!

---

(١) الجاحظ (رسائل الجاحظ) جـ ١ ص ٨٣ (هامش). طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م.

(٢) (تاريخ الطبري) جـ ٧ ص ٥١٧، ٥٢٤ (أحداث سنة ٤٤ هـ).

ولقد ظل فريق من المعتزلة ـ يقودهم امامهم: النفس الزكية ـ يحضرون للثورة منذ أن اغتصب الأمر خلفاء بني العباس.. فلقد اختفى النفس الزكية مع أخيه ابراهيم عن أعين الدولة التي سعت في طلبهم، ودارت مطاردات ومحاصرات جعلت حياتهما ضرباً من القصص الأسطوري الذي حفلت به بعض مصادر التاريخ، وسجل هذا القصص الضرورات التي جعلتهما يجوبان أنحاء الامبراطورية من العراق الى الشام الى الحجاز الى اليمن الى الهند، حتى لقد فقد النفس الزكية واحداً من أبنائه الصغار عندما هوى الطفل من قمة جبل بالحجاز في احدى المطاردات!

ولقد كانت للثورة، عند المعتزلة، شروط، منها: وجود الامام الذي بايعه الثوار، وكان النفس الزكية ـ في حالتنا هذه ـ هو الامام.. ومنها: «التمكن»، بمعنى أن تكون امكانيات الثوار بحيث تجعل من أملهم في الانتصار أمراً جائز التحقيق وفي حيز الإمكان.. وهم بذلك يميزون بين الثورة وبين التمرد غير المدروس، والانتفاضات وحركات العصيان.. لقد اتفقوا على ضرورة «التمكن» قبل الثورة والخروج وان كانوا قد اختلفوا في حجم الامكانيات التي بها يتحقق تمكن الثوار وفي نوع هذه الامكانيات[1].

ولقد كان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (٩٥ ـ ١٥٨ هـ ٧١٤ ـ ٧٧٥ م) يدرك خطورة الثورة الكامنة التي يعمل في سبيلها النفس الزكية، ويسمع عن انحياز طاعات عريضة من الرأي العام لنصرته، ففي أعناق الكثيرين له بيعة بالخلافة.. صحيح أن الناس الذين بايعوا النفس الزكية قد اضطروا لبيعة المنصور، لكن «الامام مالك» (٩٣ ـ ١٧٩ هـ، ٧١٢ ـ ٧٩٥ م) قد أفتى بأن يمين بيعتهم للمنصور باطلة لأنها يمين اكراه!.. بل لقد

---

(١) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٣٢. و (باب ذكر المعتزلة) ص ٢٤.

ذهبت قطاعات من الرأي العام الى أن خلافة النفس الزكية وثورته وخروجه على المنصور هي من الأمور التي ذكرت في الكتب القديمة، وشاع أنهم « يجدون خروجه على أبي جعفر في الرواية »[1] والمأثورات؟!.. ولذلك كله قرر المنصور اجهاض هذه الثورة القادمة قبل أن يتم لها التمكن ويكتمل لأهلها الاستعداد، واستخدم في ذلك خطة زكية بارعة ومحكمة تكونت من شعب ثلاث:

أولها: مطاردة قادة الثورة بجيش من العيون والجواسيس، حتى يمنعهم من الاستقرار الذي يتيح لهم الاعداد الهادىء للثورة.

ثانيها: توجيه قادة جيشه وكبار رجاله كي يتصلوا، سراً، بالنفس الزكية، ليوهموه أن ولاءهم له، وأنهم سينصرونه عندما يعلن ثورته، الأمر الذي يؤدي الى توهم وجود امكانيات للثورة لا وجود لها في الحقيقة، والى اعتقاد تحقق شرط « التمكن » فتعلن الثورة قبل الأوان!

ثالثها: تضييق الخناق على النفس الزكية، حتى لا يدع له خياراً، فاما أن يعجل بالثورة، واما أن يقع في قبضة أعوان المنصور..

ولقد أثمرت هذه الخطة، حتى اضطر النفس الزكية الى تقديم موعد ثورته عن الأجل الذي سبق له الاتفاق عليه مع أخيه ابراهيم، وبعبارة الطبري، « فلقد أحرج (النفس الزكية) حتى عزم على الظهور! »[2] فأعلن الثورة بالمدينة في أول رجب سنة ١٤٥ هـ، (٢٥ سبتمبر سنة ٧٦٢ م) وكان أخوه ابراهيم في البصرة يجمع الثوار على بيعة له بالعراق..

وعلى حين كان اللون الأسود شعار بني العباس، فإن البياض كان شعار

---

(١) (تاريخ الطبري) جـ ٧ ص ٥٥١ (أحداث سنة ١٤٤ هـ).

(٢) أنظر في ذلك (عيون الأخبار) مجلد ١ ص ٢٠٩ و (تاريخ الطبري) جـ ٧ ص ٥١٩، ٥٣٤، ٥٥٢، ٥٥٩. والأصفهاني (الأغاني) جـ ٢ ص ٨٣١٤ طبعة دار الشعب، القاهرة.

هذه الثورة الاعتزالية التي تفجرت بالحجاز والعراق. . وأعلن النفس الزكية أن البيعة قد عقدت له، وقال: « والله ما جئت وفي الأرض مصر ـ (بلد) ـ يعبد الله فيه الا وقد أخذ لي فيه البيعة »، وانحازت لنصرته قبائل المدينة وما حولها مثل: جهينة، وسليم، وبني بكر، وأسلم، وغفار. . الخ. بمن فيهم من أبناء المهاجرين والأنصار وشرع يرسل الى المدن والأقاليم الرسل والولاة. .

وأدرك المنصور أن الخطر لا يكمن في المدينة، حيث النفس الزكية، بل في البصرة والعراق، حيث ابراهيم بن عبد الله بن الحسن، لأن المدينة لا تمتلك امكانيات الصمود والحصار، فهي تعيش على المؤن التي تأتيها من مصر، ولامدادات الرجال المقاتلين بها حدود. . فطلب الى والي مصر أن يسد خليج أمير المؤمنين ـ الذي كان قد حفره عمرو بن العاص كي تصل عن طريقه حبوب مصر للمدينة عام الرمادة سنة ٢٣ هـ حتى لا يأتي الى المدينة عون من أنصار النفس الزكية بمصر[١]! كما منع عن ثوار المدينة الطعام والحبوب التي كانت تأتيهم من الشام، وذلك باغلاق طريقها عند وادي القرى[٢]! وبعد ذلك أرسل لمحاصرتها جيشاً من جند خراسان، يقوده عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، ومعه محمد بن أبي العباس السفاح. . وذلك على أمل ضربِ أضعف حلقات هذه الثورة، وفيها خليفتها وامامها، ثم الاستدارة لتصفيتها بالعراق!. .

وعندما اقترب الجيش الخراساني من المدينة، شاور النفس الزكية أصحابه، فأشار عليه البعض بمغادرة المدينة الى مصر، حيث الأنصار والرجال والامكانيات التي يستطيع بها مواجهة امكانيات المنصور، ولكن

---

(١) القلقشندي (صبح الأعشى) جـ ٣ ص ٢٩٨. طبعة دار الكتب، القاهرة.

(٢) (تاريخ الطبري) جـ ٧ ص ٥٧٨ (أحداث سنة ١٤٥ هـ).

نفراً من أصحابه، ضيقي الأفق أشاروا بالبقاء بمدينة الرسول، لأن الخروج منها فأل سيىء، ولأنها حصينة، واستشهدوا على حصانتها بحديث رواه أحدهم عن الرسول، عليه الصلاة والسلام: « رأيتني - (أي في المنام) - في درع حصينة، فأوّلتها: المدينة! » . .

وفي الثاني عشر من رمضان سنة ١٤٥ هـ بدأ حصار الجيش العباسي المدينة بالخيل والرجال والسلاح، وترك ناحية منها دون حصار، كي تكون باباً لمن يريد مغادرتها والتخلي عن ثورتها! . .

ولما أدرك النفس الزكية حرج موقفه، النابع من ضعف مركز المدينة وامكانياتها، أحل الناس - ان رغبوا - من يمين البيعة له، فلم يبق معه من المائة ألف الذين ثاروا خلفه الا القادة والصادقون في الثورة والخروج!

وبعد يومين من الحصار اشتعل القتال، ودارت معركة استبسل فيها النفس الزكية وأصحابه على النحو الذي ذهب أسطورة في أحاديث الملاحم والاستشهاد، فظلوا يقاتلون تحت راياتهم، التي كتبوا عليها شعار النبي يوم حنين: « أحد، أحد! »، حتى قتلوا عن بكرة أبيهم! . . وعندما انتهت المعركة قطع الجند الخراساني رأس النفس الزكية وأرسلوه للمنصور، حيث أمر بالطواف به في الأمصار والأقاليم، ثم صلبت جثته وجثث أنصاره صفين على الطريق ما بين « ثنية الوداع » حتى دار عمر بن عبد العزيز، أمام كل صليب حارس يحول بين الجثة وبين من يريد دفنها، ولما تأذى الناس من الرائحة، بعد ثلاثة أيام، أمر عيسى بن موسى بجثث الثوار فألقيت من قمة جبل « سلع » لتسقط في « المفرح »، مقبرة اليهود[1]!

* * *

(١) المصدر السابق. جـ ٧ ص ٥٧٧ - ٥٨٥، ٥٨٨، ٥٩٠، ٥٩٧، ٥٥٩-٦٠١، ٦٠٣ (أحداث سنة ١٤٥ هـ).

بقيادة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن:

وعندما بلغت ثوار البصرة أنباء هزيمة ثورة المدينة ومقتل النفس الزكية وأنصاره، لم يتراجعوا، بل ازدادوا يقيناً بصدق موقفهم ووجوب ثورتهم على العباسيين، لأن من يقتل اماماً كالنفس الزكية لابد أن تكون الثورة ضده واجباً من الواجبات!.. وبعبارة الطبري، فإن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن لما أتاه نعي أخيه «أخبر الناس... فازدادوا في قتال أبي جعفر بصيرة!» وخرجوا يريدون قتال المنصور، بعد أن عقدوا البيعة بالخلافة والامامة لابراهيم..

ولقد نجح الثوار في بسط سيطرتهم على البصرة والأهواز وفارس وأكثر ريف العراق - (السواد) - وأقاموا في تلك المناطق جهاز دولتهم العسكري والاداري والمالي، وفي هذا الجهاز تولى قادة المعتزلة أهم المسؤوليات.. فالأشعري يقول ان جمهور جيش هذه الثورة تألف «من المعتزلة وغيرهم من الزيدية»[1].. وقيادة الشرطة تولاها من المعتزلة ابراهيم بن نميلة العبشمي، الذي كان نائباً للامام ابراهيم بن عبد الله بن الحسن.. كما تولوا مناصب القضاء، وحمل راية القتال، وقيادة مقدمة الجيش الذي حارب جيش المنصور..

ولقد وجه المنصور الى هؤلاء الثوار قائده الذي هزم ثورة المدينة، عيسى ابن موسى، والتقى الجيشان على أرض «باخمري»، على بعد ستة عشر فرسخاً من الكوفة وكاد النصر أن يكون من نصيب الثوار، حتى لقد أخذ جيش بني العباس يهم بالفرار. ولكن سهماً طائشاً أصاب امام الثوار، الذي كان قد تخفف من «الزرد» الذي يحمي صدره، بسبب شدة الحر، فعانق فرسه، وتقهقر، فانتهزها جند عيسى بن موسى واستداروا فهاجموا الثوار

---

(١) (مقالات الاسلاميين) جـ ١ ص ١٥٤.

الذين أربكت اصابة امامهم صفوفهم وشغلتهم عن مواصلة مطاردة الخصوم. . فتحول النصر الوشيك الى هزيمة عندما قتل ابراهيم، «وقتلت المعتزلة بين يديه صبراً»[1]! قبل خمس ليال من نهاية شهر ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ، بعد اندلاع ثورتهم في العراق بثلاثة أشهر الا خمسة أيام!

أما الذين نجوا من القتل، فانهم هاجروا الى بلاد المغرب، حيث أسهموا في نشر الاعتزال هناك، وكونوا فرقة سميت « الواصلية » ـ نسبة الى واصل بن عطاء ـ قادت وشاركت في أحداث المغرب وثوراتها لعدة قرون. .

مع الزيدية:

واذا كانت ثورة المعتزلة سنة ١٤٥ هـ قد مثلت نهاية ثوراتهم الكبرى، بسبب التقارب الذي تم بين العباسيين وفكر المعتزلة، خاصة في عهود المأمون (١٩٨ ـ ٢٢٨ هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) والمعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٨ هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٨ ـ ٢٣٣ هـ ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م)، وبسبب نمو القسمة الفلسفية في فكرهم، مما استدعى انصراف العامة ـ وقود الثورة ـ عن المعتزلة، وانقيادهم « لأصحاب الحديث ». . فإن ولاء المعتزلة للثورة، فكراً وعملاً، ظل قائماً، واستمر متمثلاً في مناصرة فريق منهم، وهم مدرسة المعتزلة البغداديين، لثورات الزيدية، التي أخذت تتبلور كفرقة ثورية جعلت الخروج ـ (الثورة) ـ من شروط الامام، وهي الثورات التي قادها محمد بن ابراهيم بن طباطبا (١٩٩ هـ ٨١٤ م). . ومحمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين (٢١٩ هـ) الذي ثار ببلاد الطالقان بخراسان ـ ويحيى بن عمر (٢٥٠ هـ) بالكوفة. . وكذلك ثورتهم التي بنت دولة زيدية في طبرستان (٢٥٠ هـ) وفي صنعاء (٢٢٨ هـ).

* * *

(١) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٥٤.

هذه نماذج من الثورات التي قادها المعتزلة ضد بني أمية وبني العباس. . وهي نماذج تأتي مصداقاً لقولنا: ان هذه المدرسة الفكرية قد مارست السياسة، كما احترفت الفكر الفلسفي وأبدعت في تراثنا علم الكلام، وأنهم قد أسسوا ايمانهم بالثورة، كسبيل للتغيير، على القاعدة العامة التي تدعو الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستدلوا فيها استدلوا، بقول الله سبحانه: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾[1] وقوله: ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله﴾[2] وقوله لابراهيم عندما سأل عن مكان ذريته من ولاية الأمر ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾[3]!

بل لقد بلغ ايمان المعتزلة بالثورة وضرورتها الى الحد الذي أوجبوا فيه تأييد الثائرين ضد الجور والظلم حتى ولو كان هؤلاء الثوار ضالين في عقيدتهم الدينية بسبب شبهات عرضت لهم في فهم الدين، فنصرتهم واجبة حتى « وان كانوا ضالين في عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلت اليهم» لأن الضال بشبهة أعدل وأقرب الى الحق من الفاسق الجائر الذي تغلب على الخصم واغتصب أمر المسلمين دون شبهات. . ومن هنا كان تأييد المعتزلة لثورات الخوارج ضد الأمويين![4]. . وقولهم ان ثورات الخوارج قد نبعت من ايمانهم بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو أصل شريف، بل « أشرف من جميع أبواب البر والعبادة![5]».

ولعلنا اذا شئنا نصاً يحدد موقف المعتزلة المنحاز الى الثورة فإن كلمات القاضي عبد الجبار تأتي نموذجاً جيد الدلالة، فهو يقول: « وما يحل لمسلم

---

(١) المائدة: ٢.

(٢) الحجرات: ٩.

(٣) البقرة: ١٢٤.

(٤) (شرح نهج البلاغة) جـ ٥ ص ٧٨، ٧٩.

(٥) المصدر السابق جـ ١٩ ص ٣١١.

أن يخلّي أئمة الضلالة وولاة الجور اذا وجد أعواناً، وغلب في ظنه أنه يتمكن من منعهم من الجور، كما فعل الحسن والحسين، وكما فعل القراء حين أعانوا ابن الأشعث في الخروج على عبد الملك بن مروان، وكما فعل أهل المدينة في وقعة الحرة، وكما فعل أهل مكة مع ابن الزبير حين مات معاوية، وكما فعل عمر بن عبد العزيز: وكما فعل يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فيما أنكروه من المنكر . . (١).

فهو هنا يحدد موقف المعتزلة مع وجوب الثورة، عند التمكن، وغلبة الظن في الانتصار، ويجعل هذا الموقف الثوري الامتداد الطبيعي للتراث الثوري في تاريخ الاسلام ومواقف المسلمين الثوار . .

(١) (تثبت دلائل النبوة) جـ ٢ ص ٥٧٤، ٥٧٥.

ثورة الزنج

منذ عهد المتـوكل العباسي (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م) غلبت سيطرة العسكر الأتراك، وقادتهم عـلى أزمة الأمـور في الدولـة، واستأثـروا بالعطاءات والاقطاعات، واستبدوا بسلطات الخلافـة، حتى صاروا يـولون ويعزلون الخلفاء كما يريدون، بل ويسجنون ويسمـون ويقتلون من لا يحقق مطامحهم ومطامعهم من الخلفاء..

ولقد حاول بعض الخلفاء أن يستردوا لمنصب الخـلافة سلطانـه، وأن يستندوا في معارضة القادة الأتراك الى تأييد شعبي بمهادنـة العلويين الثـوار واقامة قدر من العدل والانصاف بين الرعية.. حاول ذلك الخليفة المنتصر بالله (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ ٨٦١ ـ ٨٦٢ م)، والمهتدي بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ ٨٦٩ ـ ٨٧٠ م) ولكن الأتراك تخلصوا منهما بالسم والعزل والقتل!..

وعنـدما سـدت سبل الاصـلاح أمام الـراغبين فيـه أقبل النـاس على الثورة، طريقاً لم يجدوا أمامهم سواه للتغيير، فكان أن قامت عدة حـركات ثورية، يقودها ثوار علويون.

ففي (سنة ٢٤٨ هـ سنة ٨٦٢ م) ثارت الكوفة، بزعـامة أبـي الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن اسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب..

وفي (سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م) ثارت طبرستان، بقيادة الحسن بن زيد ابن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وامتدت الثورة الى جرجان، واستمرت دولتها حتى سنة ٢٧٠ هـ سنة ٨٨٣ م.

وثارت « الري »، بزعامة محمد بن جعفر بن الحسن، بهدف الانضمام الى ثورة طبرستان. . ثم تكررت ثورتها، بعد الاخفاق، بقيادة أحمد بن عيسى بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وثارت قزوين، بقيادة الكركي (الحسن بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب).

وثارت الكوفة، بزعامة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. .

على أن أخطر الثورات التي شهدها العصر العباسي كانت هي الثورة التي قادها علي بن محمد (٢٧٠ هـ ٨٨٣ م)، والتي بدأت في البحرين سنة ٢٤٩ هـ سنة ٨٦٣ م، وهي التي اشتهرت باسم (ثورة الزنج). .

وكان قائد هذه الثورة ـ علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ شاعراً، وعالماً، يمارس، في « سامراء » تعليم الخط والنحو والنجوم[1]. . وكان واحداً من المقربين الى الخليفة المنتصر بالله. ولما قتل الأتراك المنتصر، بالسم، ومارسوا السجن والنفي والاعتقال والاضطهاد لحاشيته، كان علي بن محمد ضمن المعتقلين. . ثم حدث تمرد من فرقة « الجند الشاكرية » ببغداد، شارك فيه العامة، واقتحم المتمردون السجون فأطلقوا سراح من فيها، ومنهم علي بن

(١) تاريخ الطبري جـ ٩ ص ٤١٠.

محمد، الذي غادر بغداد الى « سامراء » ومنها الى البحرين حيث دعا الى الثورة ضد الدولة العباسية الواقعة تحت سيطرة الجند الأتراك.

دور العرب في الثورة:

وبالرغم من اشتهار هذه الثورة « بثورة الزنج »، الا أنها لم تكن ثورة عنصرية للزنج وحدهم، ولم تقف أهدافها عند المطالبة بتحرير العبيد أو تحسين ظروف عملهم.. فقائد هذه الثورة عربي، وعلوي ـ رغم تشكيك خصومه في صحة نسبه العلوي ـ وأغلب قوادها كانوا عرباً كذلك، مثل: علي بن أبان (المهلبي)، وسليمان بن موسى الشعراوني، وسليمان بن جامع، وأحمد بن مهدي الجبائي، ويحيى بن محمد البحراني، ومحمد بن سمعان.. الخ الخ..

وعلى امتداد السنوات السبع الأولى من عمر هذه الثورة (٢٤٩ـ ٢٥٥ هـ) كان جمهورها وجندها ومحيطها عربياً خالصاً.. فهي قد بدأت في مدينة « هجر »، أهم مدن البحرين، ثم في « الاحساء » بين أحياء « بني تميم» و «بني سعد».. ثم في بادية البحرين، وسط عربها.. وفي هذا المحيط العربي قامت سلطة هذه الثورة و « دولتها » وحدثت الحروب بينها وبين جيش الدولة العباسية.. ويصف الطبري سلطة علي بن محمد في هذا المحيط العربي، فيقول: « لقد أحله أهل البحرين من أنفسهم محل النبي حتى جبى له الخراج هناك، ونفذ حكمه بينهم، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه! »(١).

وفي موقعة «الردم»، بالبحرين، أحرزت الدولة انتصاراً مؤثراً ضد الثورة، فانسحب علي بن محمد الى البصرة، ونزل هناك بين عرب بني ضبيعة ـ (من نزار بن معن بن عدنان). فدعاهم للثورة، فتبعوه، وكان

(١) المصدر السابق. جـ ٩ ص ٤١٠، ٤١١.

منهم عدد من قادة دولته وجيشه[١] . . ولما طردته الدولة، وألقت القبض على أغلب أنصاره، ووضعتهم في السجون، مع ابنه الأكبر وابنته وزوجته . . غادر علي بن محمد البصرة الى بغداد، فأقام بها عاماً . .

وفي سنة ٢٥٥ هـ سنة ٨٦٩ م حدثت بالبصرة فتنة بين طائفتين من جندها، « الجند البلالية » و « الجند السعدية »، وأسفرت هذه الفتنة فيما أسفرت عن اطلاق سراح السجناء، ومنهم أنصار علي بن محمد، فغادر بغداد، ووصل الى ضواحي البصرة ليواصل ثورته من جديد! . . وفي هذا التاريخ بدأ أول انعطاف للثورة نحو الزنج، أي بعد قرابة السبع سنوات من قيامها! . .

مكان الزنج في الثورة:

كانت البصرة أهم المدن في جنوب العراق، وكانت جنوب العراق مشحونة بالرقيق والعمال الفقراء الذين يعملون في مجاري المياه ومصابها، ويقومون بكسح السباخ والأملاح الناشئين من مياه الخليج، وذلك تنقية للأرض وتطهيراً لها، كي تصبح صالحة ومعدة للزراعة، وكانوا ينهضون بعملهم الشاق هذا في ظروف عمل قاسية وغير انسانية، تحت اشراف وكلاء غلاظ قساة، ولحساب ملاك الأرض من أشراف العرب ودهاقنة الفرس . . وبعض هؤلاء العبيد كانوا مجلوبين من أفريقيا السوداء ـ وهم الزنج ـ وبعضهم نوبيون، وآخرون قرماطيون، أما فقراء العرب فكانوا يسمون الفراتيين.

وشرع علي بن محمد يدرس حالة هؤلاء الرقيق، ويسعى لضمهم لثورته، كي يحررهم ويحارب بهم الدولة العباسية . . وكان أول زنجي ينضم اليه هو ريحان بن صالح، الذي أصبح من قادة الحرب والثورة، ويقول

(١) المصدر السابق. جـ ٩ ص ٤١١.

ريحان عن لقائه الأول بقائد الثورة: لقد سألني عن غلمان الشورجيين ـ (العاملين في مسايل المياه ومجاريها) ـ وما يجري لكل جماعة منهم من الدقيق والسويق والتمر، وعمن يعمل في الشورج ـ (مسايل المياه) ـ من الأحرار والعبيد. فأعلمته ذلك، فدعاني الى ما هو عليه ـ (أي الى الثورة) ـ فأجبته. قال لي: احضر من قدرت عليه من الغلمان، وستكون قائداً لمن اتبعك منهم!(١). ..

وأخذ علي بن محمد يتنقل، مع قادة ثورته، بين مواقع عمل الرقيق والفراتيين، ويدعوهم الى الثورة والهرب الى معسكره وترك الخضوع لسادتهم، فاستجابت لدعوته جماهير غفيرة من الزنج والنوبة والقرماطيين والفراتيين، وانضموا الى العرب والأعراب الذين تبعوه من جنوبي العراق.. ولقد فشل وكلاء الزنوج في الحيلولة بينهم وبين الالتحاق بمعسكر الثائرين، فكانوا يحبسونهم في البيوت ويسدون أبوابها ومنافذها بالطين؟!.. ويصف ابن خلدون اقبال الزنج على الثورة، وزحفهم للقاء قائدها فيقول: «لقد تسايل اليه الزنج واتبعوه!»(٢).

ولقد أعلن علي بن محمد أن هدفه، بالنسبة للزنج والعرب الفقراء، الذين يعملون في اصلاح أرض العراق الجنوبي، هو:

١ ـ تحرير الرقيق من العبودية.. وتحويلهم الى سادة لأنفسهم..

٢ ـ واعطاؤهم حق امتلاك الأموال والضياع.. بل ومناهم بامتلاك سادة الأمس الذين كانوا يسترقونهم!..

٣ ـ وضمان المساواة التامة لهم في ثورته ودولته التي تعمل من أجل:

* نظام اجتماعي هو أقرب الى النظم الجماعية التي يتكافل فيها

---

(١) ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة) جـ٨ ص ١٣٢.

(٢) (العبر) مجلد ٤ ص ١٩. طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ.

ويتضامن مجموع الأمة[1].

* نظام سياسي يرفض الخلافة الوراثية لبني العباس، والتي أصبحت أسيرة بيد قادة الجند الأتراك.. ويقدم بدلاً منها دولة الثورة التي أصبح علي ابن محمد فيها أمير المؤمنين.

ولقد استطاعت الثورة أن تكتسب، أكثر فأكثر، ثقة جماهير الزنج وفقراء العرب، الذين كانوا أشبه ما يكونون بالرقيق، وبالذات في ظروف العمل وشروطه.. وخاصة بعد أن رفض قائد الثورة مطالب الأشراف العرب والدهاقين والوكلاء، بأن يرد عليهم عبيدهم لقاء خمسة دنانير يدفعونها عن كل رأس!.. لقد رفض علي بن محمد هذا العرض، بل وعاقب هؤلاء السادة والوكلاء، فطلب من كل جماعة من الزنج أن يجلدوا سادتهم ووكلاءهم القدامى!..

وزاد من اطمئنان الزنج للثورة ما أعلنه قائدها من أنه «لم يثر لغرض من أغراض الدنيا، وانما غضباً لله، ولما رأى عليه الناس من الفساد».. وعاهدهم على أن يكون، في الحرب، بينهم «أشرككم فيها بيدي، وأخاطر معكم فيها بنفسي» بل قال لهم: «ليحط بي جماعة منكم، فإن أحسوا مني غدراً فتكوا بي؟!»..

وبهذه الثقة تكاثر الزنج في صفوف الثورة وفي كتائب جيشها، بل وانضمت اليها الوحدات الزنجية في جيش الدولة في كل موطن التقى فيه الجيشان[2]!.. حتى لقد سميت، لذلك، بثورة الزنج، واشتهرت بهذا الاسم في مصادر التاريخ.

---

(١) يشبه نظام الملك الفلسفة الاجتماعية والتنظيم المالي لثورة الزنج «بالمزدكية» التي قامت على «الاشتراك الشيوعي» في ثروة المجتمع. أنظر (سياسة نامة) ص ٢٨٥.

(٢) (تاريخ الطبري) ج ٩ ص ٤١٠ - ٤١٥، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٣٠. وابن خلدون (العبر) جـ ٤ ص ١٨، ١٩.

دولة الثورة:

وفي عشرات المعارك التي وقعت بين الدولة العباسية وبين ثورة الزنج، كان النصر، غالباً، للثورة على الدولة.. وتأسست، كثمرة لهذه الانتصارات، للثورة دولة، قامت فيها سلطتها، وطبقت بها أهدافها، ونفذ فيها سلطان علي بن محمد.. ولقد بلغت دولة الثورة هذه درجة من القوة فاقت بها كل ما عرفته الخلافة العباسية قبلها من أخطار وثورات.. والمؤرخون الذين كانت الدنيا عندهم هي الامبراطورية العباسية، قالوا: ان الزنج قد «اقتسموا الدنيا!.. واجتمع اليهم من الناس ما لا ينتهي العد والحصر اليه!» وكان عمال الدولة الثائرة يجمعون لعلي بن محمد الخراج «على عادة السلطان!» حتى لقد «خيف على ملك بني العباس أن يذهب وينقرض!»[1].

ولقد أقام الثوار لدولتهم عاصمة، سموها (المختارة)، أنشأوها انشاء في منطقة تتخللها فروع الأنهار.. كما أنشأوا عدة مدن أخرى - وضمت دولتهم مدناً وقرى ومناطق كثيرة، مثل: البحرين.. والبصرة.. والأبلة.. والأهواز.. والقادسية.. وواسط.. وجنبلاء.. وباذاورد.. والنعمانية.. والمنصورة.. وجرجرايا.. وجبل.. ورامهرمز.. والمنيعة.. والمذار.. وتستر.. والبطيحة.. وخوزستان.. وعبادان.. وأغلب سواد العراق.

* * *

ولقد استمرت الحرب بين دولة الثورة هذه وبين الخلافة العباسية لأكثر من عشرين عاماً - بلغ العنف فيها، من الجانبين، حداً لم يسبق له مثيل، حتى ليقول المؤرخون الذين يتواضعون بأرقام القتلى في هذا الصراع بأنهم

(١) (شرح نهج البلاغة) جـ ٨ ص ١٦٤، ١٦٥.

بلغوا نصف مليون قتيل! أما غيرهم فيقول: ان العدد قد عجز عن ادراك رقم الضحايا!.. ويعلق المسعودي فيقول: «ان كلا الفريقين يقول في ذلك ظناً وحدساً، اذ كان القتل في هذا القتال شيئاً لا يدرك ولا يضبط؟!»[1].

ولقد ألقت الخلافة العباسية بكل ثقلها في المعركة ضد الثورة، وكرست كل امكاناتها للجيش والقتال، وبعد أن عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م)، بالقيادة الى أخيه الموفق، تحول قائد الجيش الى خليفة حقيقي، وتحولت المدينة التي بناها تجاه عاصمة الثوار، والتي سماها (الموفقية)، الى العاصمة الحقيقية للدولة، يأتي الى بيت مالها كل خراج البلاد، وتصدر منها الأوامر الى كل الولاة والعمال بأن يقدموا للجيش كل ما لديهم من امكانيات، حتى لقد حاول «المعتمد» الفرار من سامراء الى مصر، فألقوا القبض عليه وأعادوه الى قصر الخلافة شبه سجين!..

ولقد رجحت كفة الجيش العباسي بما احتشد له من فرسان وسفن وعتاد.. فأحرز عدداً من الانتصارات على جيش الزنج، وبدأ حصاراً لعاصمتهم استمر أربع سنوات!.. وكانت مصر قد استقلت عن الخلافة تحت حكم أحمد بن طولون (٢٢٠ ـ ٢٧٠ هـ ٨٣٥ ـ ٨٨٤ م) وكان لها جيش قوي بالشام يقوده لؤلؤ، غلام ابن طولون، فخان سيده وانضم الى جيش الدولة المحتشد لقتال الثوار، وعند ذلك تمكن الموفق من اقتحام (المختارة)، وهزيمة الثورة، التي بدأت سنة ٢٤٩ هـ وظلت قائمة تقاوم حتى أول صفر سنة ٢٧٠ هـ (١٠ أغسطس سنة ٨٨٣ م).. فكانت أطول ثورات العصر العباسي وأخطرها..

---

(١) (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٤٧٩.

تياران: مع الثورة.. وضدها

هكذا رأينا: الخوارج، وتياراً من تيارات الارجاء، والمعتزلة، ثم الزيدية والعلويين، وبعضاً من فرق الشيعة الامامية، مثل الاسماعيلية، وكذلك الكيسانية، تجمع كلها، فكراً وعقلاً، على ضرورة اللجوء الى الثورة والعنف الثوري - (السيف) - كسبيل لازالة الظلم والجور والفساد، وبناء المجتمع الذي يوفر للمسلمين العدل والفضيلة والأمان.. ولم يشذ عن هذا الاتجاه الثوري، في القرن الهجري الأول، الا أحد تيارات المرجئة، الذي ناصر أو آزر الأمويين، والا شيعة جعفر الصادق الذين علقوا السماح باستخدام العنف الثوري - (السيف) - على ظهور امامهم المنتظر الذي سيخرج ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً[1]..

ولقد ظلت الشيعة الإثنا عشرية على موقفها المناهض للثورة.. بينما حمل التيار الفكري الذي عرف «بأهل الحديث» وكذلك نفر من التيار الأشعري فكر المرجئة الذين ناهضوا الثورة ونهوا عن استخدامها في النهي عن المنكر، والتغيير..

---

(١) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ١٤٠. والطوسي (تلخيص الشافي) جـ ١ ق ٢ ص ٥٨، طبعة النجف سنة ١٣٨٣ هـ.

ولم ينكر هذا الفريق وجوب النهي عن المنكر، فهو ثابت بالكتاب والسنة، ولكنهم حصروا وسائل النهي عن المنكر في اللسان والقلب، دون اليد، فضلاً عن السيف، خصوصاً اذا ما ترتبت على وسائل « الفعل » هذه تضحيات.. !

فأصحاب الحديث، وأبرز أئمتهم أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ - ٧٨٠ - ٨٥٥ م)، قد انفردوا وحدهم، دون فرق الاسلام ومدارسه الفكرية، بتحريم السيف - (الثورة المسلحة) - وانكار الخروج المسلح على أئمة الجور وظلمة الحكام، وقالوا: ان « السيف باطل، ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية، وأن الإمام قد يكون عادلاً، ويكون غير عادل، وليس لنا ازالته وان كان فاسقاً، وأنكروا الخروج على السلطان، ولم يروه![1] »..

وهم قد استندوا في موقفهم هذا الى اعتزال نفر من الصحابة للفتن والصراعات التي شبت في صدر الاسلام، عندما عمي عليهم وجه الصواب والخطأ، أو أدركوا الصواب والخطأ ثم تحرجوا أن يجردوا السيف ضد من سبقت له صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن هؤلاء الصحابة: سعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة.. الخ..

ونحن نعتقد بوجود الصلاة الوثيقة بين الأسس الفكرية لهذا الموقف اللاثوري وبين شيوع الاستبداد بالسلطة والتغلب على الحكم من قبل المستبدين وسلاطين الجور الذين طبعوا التاريخ الاسلامي بكل ما هو غريب عن الشورى ومناقض للعدل والاختيار..

ويشهد لهذا الاعتقاد - على سبيل المثال - قول إمام أهل الحديث أحمد ابن حنبل، الذي يرويه عنه صاحبه عبدوس بن مالك القطان: « .. ومن

(١) (مقالات الاسلاميين) جـ ٢ ص ٤٥١، ٤٥٢ (طبعة استانبول سنة ١٩٢٩).

غلب بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه اماماً عليه، براً كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين! »(١).

وعند ابن حنبل: اذا قام أكثر من مستبد، وتنازعوا أمرهم، وانقسم الناس، فإن صلاة الجمعة ومن ثم التأييد، يكون من نصيب « من غلب »!(٢)..

واقد تبع ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م) ـ رغم جرأته في الحق ـ موقف أستاذه ابن حنبل المعادي للثورة، وأورد، تأييداً لهذا الموقف عدداً من أحاديث الآحاد المنسوبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن أقواله في هذه القضية: ان « المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف، وان كان فيهم ظلم.. لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ».. وروي للدلالة على ذلك أحاديث غريبة عن روح الاسلام، تنهى عن قتال أمراء الجور طالما هم يصلون!.. وتدعو الناس الى أداء واجباتهم وطاعة الحكام الظلمة، مع كراهية ظلمهم بالقلب، والابتعاد عن العصيان لهؤلاء الطغاة!!(٣).

وقريباً من هذا الموقف، المعادي، أو غير المناصر للثورة، وقف أغلب الأشعرية.. فالامام الغزالي يرى خلع الحاكم المستبد الذي لم يستكمل شروط الامامة اذا أمكن ذلك دون قتال ـ ولست أدري كيف يتصور امكان

---

(١) أبو يعلى الفراء (الأحكام السلطانية) ص ٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م. و (كتاب الامامة) ص ٢١٢ طبعة بيروت، ضمن مجموعة عنوانها (نصوص الفكر السياسي الاسلامي: الامامة عند السنة) سنة ١٩٦٦ م.

(٢) أبو يعلى (الأحكام السلطانية) ص ٦.

(٣) (منهاج السنة) جـ ٢ ص ٨٧. الطبعة الأولى.

ذلك، مع استبداده بالقوة والسيف ـ وإلا فالرأي عنده هو: وجوب طاعته والحكم بامامته، فيقول: « . . . والذي نراه ونقطع: أنه يجب خلعه ان قدر، على أن يستبدل عنه من هو موصوف بجميع الشروط، من غير اثارة فتنة ولا تهيج قتال. وان لم يكن ذلك الا بتحريك قتال وجبت طاعته وحكم بإمامته[١]»!.. فإن السلطان الظالم الجاهل متى ساعدته الشوكة، وعسر خلعه، وكان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق، وجب تركه، ووجبت الطاعة له!.. وهو يرى في طاعة الظالم الجاهل مكاسب تتحقق للأمة تفوق الآمال المعلقة على خلعه بالثورة، ويتساءل: « كيف نفوت رأس المال في طلب الربح[٢]؟! ».

ونفس الموقف يقفه ابن جماعة (٦٣٩ ـ ٧٣٤ هـ ١٢٤١ ـ ١٣٣٣ م) عندما يصور الأمر كما لو كان غاية تجب الطاعة فيها للأقوى من المستبدين، حتى لو كان جاهلاً فاسقاً، فإذا أطاحه جاهل فاسق آخر كان هو الامام المطاع!.. يقول: «أنه ان خلا الوقت عن امام، فتصدى لها من هو ليس من أهلها، وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو استخلاف، انعقدت بيعته ولزمت طاعته.. ولا يقدح في ذلك كونه جاهلاً أو فاسقاً.. وإذا انعقدت الامامة بالشوكة والغلبة لواحد، ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده، انعزل الأول وصار الثاني اماماً »![٣].

وابن جماعة بهذا الفكر يطوع الاسلام وفكره السياسي للأوضاع التي سادت عصر المماليك الذي عاش فيه!..

وبهذا الرأي يقول التفتازاني في (شرح العقائد النسفية).. كما قال به

(١) الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٣٧ طبعة صبيح، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) (احياء علوم الدين) ص ٨٩٣، ٨٩٤. طبعة دار الشعب، القاهرة.

(٣) (تحرير الأحكام). والنص منقول عن (دراسات في حضارة الاسلام) لجب ص ١٨٨. طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ م.

الأشعري أيضاً، ومن كان قد سماهم الملوك بدلاً من الخلفاء، ورأى عدم الثورة على هؤلاء الملوك!..

ولقد تكون لهذه المبررات العملية التي ساقها هذا النفر من أئمة أهل الحديث والأشعرية حظوظ من الوجاهة في بعض المواقف والملابسات.. ولكن الأمر السلبي الذي أدى اليه هذا الموقف المناهض للثورة هو: أنه أعطى الشرعية لنظام الاستبداد بالسلطة ولحكم المستبدين، حتى صار هو القاعدة، وصار الخضوع له والطاعة لأهله هو الشريعة والقانون، حتى لقد قال نفر من الفقهاء: «من يحكم يطع»![1] وحتى أصبح الحديث عن الامامة، بشروطها وصفات القائم بها، لا يتجاوز نطاق المباحث الكلامية والفقهية الى أرض الواقع والتطبيق، كما أصبحت الثورة على أئمة الجور والاستبداد منكراً يوصف أصحابه بالخروج والمروق.. أي أن هذا الفكر المبرر لسلطة الاستبداد واستبداد المتسلطين قد جعل حكم الطغاة هو القاعدة، ونظام الخلافة الاسلامية الشوروية هو الشذوذ والاستثناء!..

غير أننا نعود، في الختام، فنذكر بما أثبتته وأكدته هذه الدراسة من أن **الفكر الاسلامي قد اجتمع وأجمع أعلامه، في عصوره المبكرة، على الانحياز للثورة كسبيل من سبل التغيير، ولقد حدث ذلك عندما كان هؤلاء الأعلام ينطلقون من المصادر الأولية والجوهرية النقية للدين ومن تجزبة الخلفاء الراشدين في الحكم على أساس من الشورى والاختيار.. فلما عرفت النظم الاستبدادية، غير الشوروية، طريقها الى واقع المسلمين، وغلب الطابع الاستبدادي على تاريخ الحكم الاسلامي، أصبح هذا الواقع الشاذ، لغلبته واستمراريته، مصدراً من مصادر الفكر لدى تيار من مفكري الاسلام، فكانت تلك الآراء التي عرضنا طرفاً منها، والتي ناهض**

---

(١) سانتيلا (القانون والمجتمع) ص ٤٣٠ ترجمة جرجيس فتح الله. طبعة بيروت - ضمن مجموعة عنوانها: تراث الاسلام - سنة ١٩٧٢م.

أصحابها الثورة كسبيل من سبل التغيير في مجتمع الاسلام..

فالايمان بالثورة، في الفكر العربي الاسلامي، أصيل أصالة فكرنا الديني الاسلامي النقي وتطبيقاته الشوروية المبكرة.. كما أن العداء للثورة في هذا الفكر، طارىء وغريب.. طارىء لأنه نبت للاستبداد السياسي الذي أصاب واقع هذه الأمة بعد دولة الخلفاء الراشدين، وغريب لأنه.. بكل المقاييس - لا يتسق مع روح الاسلام ونزوع الانسان العربي الى مقاومة الظلم ورفض الخضوع للاستبداد والمستبدين.

(المراجع)


ابن أبي الحديد: (شرح نهج البلاغة) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م.
ابن الأثير: (أسد الغابة) طبعة دار الشعب ـ القاهرة.
ابن تيمية: (منهاج السنة) طبعة القاهرة، الأولى.
ابن جميع (أبو حفص عمر): (مقدمة التوحيد وشروحها) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ.
ابن حنبل (أحمد): (المسند) طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ.
ابن خلدون: (المقدمة) طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.
(العبر) طبعة القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ.
ابن سعد: (الطبقات الكبير) طبعة دار التحرير ـ القاهرة.
ابن عبد البر: (الدرر في اختصار المغازي والسير). طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.
ابن قتيبة: (الامامة والسياسة) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
(عيون الاخبار) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م.
(المعارف) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

ابن ماجة: (السنن) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م.
ابن المرتضى: (باب ذكر المعتزلة ـ من كتاب المنية والأمل) طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ.
ابن منظور: (لسان العرب) طبعة القاهرة.
أبو داود: (السنن) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م.
الأشعري: (مقالات الاسلاميين) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م وطبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م.
الأصفهاني: (الأغاني) طبعة دار الشعب ـ القاهرة.
الأفغاني (جمال الدين): (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
البخاري: (صحيح البخاري) طبعة دار الشعب، القاهرة.
برنارد (لويس): (أصول الاسماعيلية) طبعة القاهرة ـ دار الكتاب العربي ـ دون تاريخ.
البيضاوي: (تفسير البيضاوي) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م.
الترمذي: (السنن ـ الجامع الصحيح) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م.
الجاحظ: (رسائل الجاحظ) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م.
جب: (دراسات في حضارة الاسلام) طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ م.
الدارمي: (السنن) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.
سانتيلا: (القانون والمجتمع) طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة (تراث الاسلام ـ سنة ١٩٧٢ م.
الشهرستاني: (الملل والنحل) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
الطبري: (التاريخ) طبعة دار المعارف ـ القاهرة.
طه حسين (دكتور): (الفتنة الكبرى) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م.
الطوسي: (تلخيص الشافي) طبعة النجف سنة ١٣٨٣ هـ.
عبد الجبار بن أحمد (قاضي القضاة): (المغني في أبواب التوحيد والعدل)

طبعة القاهرة.
(فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.
(تثبيت دلائل النبوة) تحقيق دكتور عبد الكريم عثمان ـ طبعة بيروت سنة ١٩٦٦ م.
علي بن أبي طالب (الامام): (نهج البلاغة) طبعة دار الشعب ـ القاهرة.
الغزالي (أبو حامد): (الاقتصاد في الاعتقاد) طبعة القاهرة ـ صحيح ـ دون تاريخ (ضمن مجموعة).
(احياء علوم الدين) طبعة دار الشعب ـ القاهرة.
فان فلوتن: (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.
الفراء (أبو يعلى): (الأحكام السلطانية) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.
(كتاب الامامة) طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة ـ سنة ١٩٦٦ م.
فلهوزن (يوليوس): (الخوارج والشيعة) ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م.
القاسمي (جمال الدين): (تاريخ الجهمية والمعتزلة) طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ هـ.
القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية.
القلقشندي: (صبح الأعشى) طبعة دار الكتب ـ القاهرة.
ناجي حسن: (ثورة زيد بن علي) طبعة بغداد سنة ١٩٦٦ م.
مالك: (الموطأ) طبعة دار الشعب. القاهرة.
محمد عبده (الامام): (الأعمال الكاملة للامام محمد عبده)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.
(الاسلام والمرأة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م.

محمد عمارة (دكتور) : (مسلمون ثوار) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م.
محمد فؤاد عبد الباقي : (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب، القاهرة.
المسعودي : (مروج الذهب) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م.
مسلم : (صحيح مسلم) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.
النسائي : (السنن) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م.
نظام الملك : (سياسة نامة).
النوبختي : (فرق الشيعة) تحقيق : ريتر. طبعة استانبول سنة ١٩٣١ م.
ونسنك (أ. ي) : (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) طبعة ليدن سنة ١٩٣٦ . ١٩٦٩ م.

الفهرست



صدر من هذه المجموعة

الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية، د/ عبد الرحمن بدوي .	5.000
علم الكيمياء والصيدلة عند العرب - د/ فاضل احمد الطائي .	2.000
علم الفيزيقا عند العرب - د/ احمد سعيد الدمرداش	1.500
علم النبات عند العرب - د/ عبد السلام محمد النويهي	1.000
الجغرافية عند العرب - د/ شاكر خصباك	3.500
الجيولوجيا عند العرب - د/ علي السكري	2.500
أصول الدين، أصول الفقه، العقل والنقل، د/ حسن حنفي	3.000
القرآن وعلومه، الحديث وعلومه، د/ محمد خلف الله	1.500
الفقه الاسلامي - الدكتور علي عبد القادر	2.500
نظرية الخلافة - د/ محمد عمارة	2.000
السلفيـة - د/ محمد عمارة	1.500
الثورة - د/ محمد عمارة	2.500
الفرق الاسلامية - د/ محمد عمارة	4.000
فن الحرب عند العرب - اللواء جمال محفوظ	2.800
أثر الحروب الصليبية في العالم العربي - د/ قاسم عبده قاسم	1.500
مظاهر الحياة اليومية في عصر المماليك - د/ قاسم عبده قاسم ...	1.500
نظم الحكم والادارة في عصر الأيوبيين والمماليك، د/ سعيد عاشور	1.500
المرأة والمؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، د/ سعيد عاشور	2.000
النقد والبلاغة - د/ شكري عياد	1.500
علم العروض - د/ محمد بدوي المختون	1.500

تم سحب ثلاثة آلاف نسخة من هذا الكتاب.

تدمك : ISBN 9973 - 16 - 348 - 6

الثمن : 2.500 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.